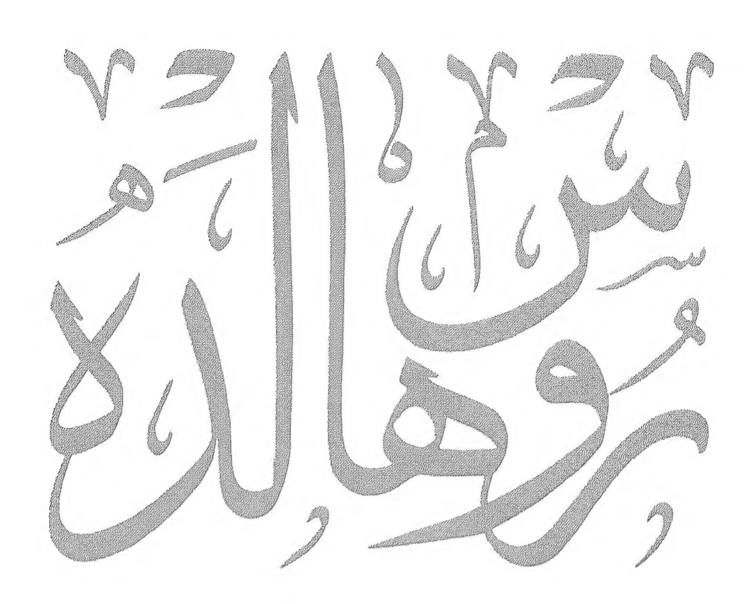
هرمان هسّه



رواية



ترجمة

أسامة منزلجي

Bibliotheca Alexandrina
00117334

روشهَالدِه

• ـ روسهالده (رواية)
• ـ هـرمـان هسـه
• ـ الطبعة الأولى ١٩٩٧
• ـ جميع الحقوق محفوظة للناشر
• ـ دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع
• ـ سورية ـ دمشق ـ هاتف: ٦٧١٣٠٧٩
ص. ب: ٣٢١٠٥

هرمان هِسّه

الهيئة العامة لمكتبة الأسكندرية

رقم التصنيف ....

رقم التسجيل

روسْهَالدِه

ترجمة أسامة منزلجي

إهداء المترجم

إلى صديق الطريق الطويلة، والمزاج المتآلف، والآراء المختلفة، منذر مصري ← الفنان التشكيلي.

1

قبل عشر سنوات عندما اشترى يوهان فيراغوث عزبة روسهالده وانتقل إليها، كانت منزلاً قديماً مهجوراً ذا ممراتٍ حديقةٍ نما عليها العشب واستطال، وغطّت الطحالب المقاعد، وتشققت درجات السلم الحجرية، والرحْبةُ وقد تشابكت أعشابها. والأبنية الوحيدة التي كانتِ قائمة على هذه الملكية، وتقدَّر بنحو ثمانية إكرات، هي منزل كبير جميل، متهدم قليلاً مع اسطبله، وكان في الأرض الرحبة منزل صيفي صغير أشبه بالمعبد، بابه مائل على مفاصل ملتوية وجدرانه، التي كانت في وقت سابق مغطاة بستائر من الحرير الأزرق، امتلأت بالطحالب والعفن.

بعد شرائه المنزل مباشرة عمد المالك الجديد إلى إزالة المعبد المتداعي، وأبقى فقط على الدرجات الحجرية العتيقة العشر التي تهبط من عتبته وتصل حتى حافة بركة السمك. وفي مكانه أقيم محترف فيراغوث. هنا، وعلى مدى سبع سنين، ظل يرسم ويمضي أغلب وقته، لكنه كان يقطن في منزل العزبة إلى أن دفعه الشقاق المتفاقم في العائلة إلى أن يرسل ابنه الأكبر إلى مدرسة داخلية، وإلى ترك منزل العزبة لزوجته وللخدم، وإلى أن يضيف للمحترف غرفتين لاستخدامه الخاص، وهناك عاش حياة عازب منذ ذلك الحين.

والمؤسف في الأمر بشأن منزل العزبة الجميل أن السيدة فيراغوث وبيير ذا السنوات السبع لم يكونا يشغلان فيه إلا الطابق العلوي، فلم تكن تستقبل إلا القليل من الزوار والضيوف، وهكذا يظل عدد من الغرف خالياً على مدار العام.

كان الصغير بيير حبيباً إلى قلب كلا والديه، وكان يشكل الرابط الوحيد بين الأب والأم؛ فهو لم يحافظ فقط على كونه صلة وصل خاصة بين المنزل الرئيس والمحترف، بل كان، بصورة ما، السيد الآمر الوحيد والمسيطر على عزبة روسهالده. وكانت منطقة السيد فيراغوث الخاصة هي محترفة، وشاطئ البحيرة، ومنطقة تحريم الصيد السابقة، في حين أن زوجته كانت تهيمن على المنزل، والمرج، وعلى أدغال شجر الزيزفون والجوز. ونادراً ما كان أحدهما يقوم بزيارة منطقة الآخر، إلا في أوقات تناول وجبات الطعام، حين يتوجه الرسام عادة إلى منزل العزبة. بيير وحده لم يكن يلاحظ، بل إنه لم يكن يعي قط، هذا الإنقسام في الحياة وفي المناطق. كان يروح ويجيئ بكل حرية في المنزل العتيق كما في المنزل الجديد، وكان يشعر بالألفة في محترف والده وبالحرية كما يفعل في رواق منزل العزبة وصالة لوحاته، أو في جناح والدته؛ لقد كان السيد الآمر على التوت البري في دغل شجر الجوز، وعلى الزهور في دغل شجر الزيزفون، وعلى السمك في البحيرة، وعلى غرفة تغيير ملابس السباحة وعلى زورق الغندول. وكان في تعامله مع خدم والدته ومع روبرت، خادم والده، يشعر أنه معاً سيد مهيمن ومحميّ؛ كان في نظر زوار والدته وضيوفها ابن سيدة المنزل. وفي نظر السادة الذين يأتون أحياناً إلى محترف البابا ويتحدثون بالفرنسية، ابن الرسام. وكانت رسوم الصبي وصوره معلقة

في غرفة نوم والده وفي جناح والدته في المنزل العتيق ذي ورق الجدران الخفيف اللون. وكان بيير يعيش في بحبوحة، بل كان في الحقيقة أكثر ثراءاً من أي من الأطفال الذين كان أهاليهم يعيشون في وئام؛ ولم تكن تنشئته منتظمة وفق أي برنامج، وحين كان يقع في مشكلة، كما يحدث أحياناً، في منطقة والدته، فإن منطقة البحيرة كانت تقدم له ملجأ آمناً.

كان قد أوى إلى السرير منذ وقت طويل، وكانت آخر نافذة في منزل العزبة قد أعتمت عند الساعة الحادية عشرة. وبعد منتصف الليل بوقت طويل عاد يوهان فيراغوث وحده من البلدة، حيث أمضى الأمسية مع بعض الأصدقاء في إحدى الحانات. وبينما هو يسير وسط ليلٍ أوائل الصيف غائم، منعش، كان جو النبيذ والدخان، والضحك المحتقن والنكات الشائنة قد زال عنه؛ وراح يستنشق منتعشاً هواء الليل الكثيف قليلاً، والرطب، والدافئ وهو يسير بنشاط على الطريق بين الحقول المظلمة للقمح الذي نما كثيراً لتوه، واقترب من عزبة روسهالده بقمم أشجارها الكثيفة صامتة في وجه سماء الليل الشاحبة.

لدى مروره ببوابة العزبة ألقى نظرة سريعة على المنزل الكبير؛ بواجهته الفخمة المضاءة تشع بفتنة في قلب ظلمة الأشجار الحالكة، ورنا بضع دقائق إلى المشهد الجميل باستمتاع واستغرابِ مسافر عابر سبيل؛ ثم واصل مسيره بضع مئات من الخطوات على طول السياج العالي إلى المكان الذي كان قد أحدث فيه فتحة ومنه يؤدي ممر سري يتخلل الغابة إلى المحترف. واستيقظت أحاسيسه بقوة، وسار الرجل القصير القامة القوي البنية خلال الأرض الرحبة المعتمة بأعشابها النامية متوجهاً إلى منزله؛ وبدا كأن قمم الأشجار

الداكنة التي تطل من علٍ على البحيرة قد تباعدت، وظهرت قبة السماء الرمادية الباهتة، وفجأة إذا بالمنزل يمثل أمامه.

رقدت البحيرة الصغيرة سوداء تقريباً يلفها صمت مطبق، والضوء الخفيف استقر على الماء كغشاء شفاف، أو كطبقة من الغبار الناعم. نظر فيراغوث إلى ساعته، لقد قاربت الواحدة. فتح باباً جانبياً يؤدي إلى غرفة معيشته. هنا أضاء شمعة وخلع ملابسه على عجل؛ ثم غادر المنزل وهو عار وهبط ببطء الدرج الحجري المسطح العريض ومنه إلى الماء، الذي تلألأ برهة على شكل حلقات صغيرة رقيقة حول ركبتيه. غاص، وسبح مبتعداً قليلاً داخل البحيرة، وفجأة شعر بتعب الأمسية التي قضاها بطريقة غير معتادة، فقفل عائداً، وولج المنزل وهو يقطر ماءً. رمي برنس حمام على كتفيه، وجفف شعره المقصوص قصيراً، وأخذ يرتقي حافي القدمين الدرجات القليلة المؤدية إلى محترفه، وهو عبارة عن غرفة رحبة، تكاد تكون خالية وهناك، وببضع حركات نزقة أدار على عجل مفاتيح كل الأنوار الكهربائية.

توجه بسرعة إلى الحامل الذي يحمل لوحة صغيرة كان يعمل عليها خلال الأيام القليلة الأخيرة. ومال إلى الأمام وقد وضع يديه على ركبتيه. ووقف أمام اللوحة وهو يحدق إلى سطحها، الذي كانت ألوانه الطرية تعكس الضوء القوي. وظل هكذا دقيقتين أو ثلاث، يحدِّق في صمت إلى أن دبت الحياة في اللوحة بأكملها، وحتى آخر ضربة ريشة، في عينيه؛ وخلال السنوات القليلة الأخيرة كان قد اعتاد أثناء الليل وقبل أن يبدأ في أحد الأعمال أن لايحمل معه إلى السرير إلا صورة اللوحة التي كان يعمل عليها. وبعد ذلك أطفأ الأنوار، وحمل شمعة وتوجه إلى غرفة نومه، التي عُلِّق على بابها لوح

اردوازي صغير. التقط قطعة طباشير وكتب بأحرف كبيرة: «الاستيقاظ في السابعة، القهوة في التاسعة»، ثم أغلق الباب خلفه، وأوى إلى السرير. ظل مستلقياً فترة وجيزة دون حراك وعيناه مفتوحتان، مجبراً اللوحة على أن تتخذ شكلاً على شبكية عينه. وبعد أن تشبَّع بها أغمض عينيه ذواتا اللون الرمادي الصافي، وأطلق تنهيدة خفيفة، وسرعان ما استغرق في النوم.

في الصباح أيقظه روبرت في الساعة المحددة؛ فنهض على الفور، واغتسل بماء بارد وجارٍ، وارتدى رداء ذا لون باهت من الكتان الرمادي الخشن، ثم توجه إلى المحترف؛ وكان الخادم قد فتح مصاريع النوافذ الثقيلة. وعلى طاولة صغيرة كان هناك صحن يحتوي فاكهة، وإبريق زجاجي مملوء بالماء، وقطعة من خبز الجاوذار. التقط وهو مستغرق في التفكير الخبز وقضم منه قطعة أثناء وقوفه عند الحامل ينظر إلى لوحته. راح يخطو إلى الأمام وإلى الخلف، ويتناول بضع قضمات من الخبز، ويتصيد بضع ثمرات من الكرز من الطاس الزجاجي، ولاحظ وجود بعض الرسائل والصحف موضوعة على الطاولة لكنه تجاهلها. وبعد برهة وجيزة كان جالساً على كرسي المخيم وينظر بإمعان إلى عمله.

اللوحة الصغيرة ذات التكوين الأفقي كانت تمثل مشهد صباح باكر كان الرسام قد شاهده ونفّذ عدة رسوم تخطيطية له خلال إحدى الجولات. فقد كان قد توقف في حانة ريفية صغيرة في أعالي نهر الراين، حيث كان الصديق الذي قدم لزيارته موجوداً في مكان ما. وأمضى أمسية ماطرة مزعجة في غرفة البار العابقة بالدخان وليلة سيئة في غرفة النوم الرطبة التي تفوح بروائح ماء الكلس العفن. وقبل طلوع

الشمس استيقظ وهو محموم ومستاء من نومه الخفيف. ولما وجد أن باب المنزل مايزال موصداً تسلق خارجاً من نافذة الحانة، وحلّ أحد القوارب الراسية على الضفة المجاورة لنهر الراين، وراح يجذّف إلى عمق النهر الراكد، الذي بالكاد كان واضحاً للعيان. وحالما بدأ يفكر في العودة شاهد في الطرف النائي للشاطئ صياد سمك يجذف مقترباً منه. بدا القارب الشراعي الصغير، وحدوده المعتمة يسبح في الضوء البارد، المرتعش قليلاً، للفجر الوديع الممطر، وبدا القارب الصغير كبيراً بصورة غير عادية. وأسره المشهد العام والضوء الغريب على الفور، فجذّف بمجذافيه إلى الداخل بينما اقترب الرجل منه، ثم توقف عند العلامة العائمة، ورفع فخاً للسمك من المياه الباردة. وظهرت سمكتان عريضتان، ذواتا لون فضي باهت، والتمعتا برطوبتهما برهة فوق صفحة النهر الرمادية، ومن ثم سقطتا مع صوت صافع داخل قارب الصياد. وطلب فيراغوث من الرجل أن ينتظر، وكان قد أحضر معه صندوق ألوان أولي، ورسم صورة وصفية صغيرة بالألوان المائية. ومن ثم أمضى النهار في القرية يرسم ويقرأ؛ وفي صباح اليوم التالي عاد إلى الرسم في الهواء الطلق، ومن ثم عاود جولاته. ومنذ ذلك الحين وهو يقلب اللوحة في ذهنه مراراً وتكراراً، ويعاني العذابات، إلى أن اتخذت شكلها. وهو الآن يعمل عليها منذ أيام طوال، كادت أن تنتهي.

في الأساس كان يرسم تحت نور الشمس البراقة أو في النور الدافئ، المتكسر، في أرض الرحبة أوفي الغابة، بحيث أن برودة اللوحة المتدفقة الفضية قد كبدته الكثير من المشقة. لكنها منحته روحاً جديدة، بحيث أنه عثر قبلها بيوم على حلّ

مرضٍ، وقد بات يشعر الآن أن هذا العمل جيد وغير عادي، وهو أكثر من مجرد لوحة تشبه الأصل جديرة بالإطراء، وأنه يحتوي لحظة من دفق الطبيعة المبهم تفجرت مخترقة السطح الزجاجي، وقدمت صورة أليفة للواقع العنيف، بكامل عنفوانه.

دقق الرسام بعينين ممعنتين في اللوحة، وقيَّم درجات الألوان على ملْوَنهِ، الذي لم يعد يشبه في شيء ملْوَنه المعتاد، بعد أن كاد يفقد كل تدرجات ألوان الأحمر والأصفر. كان قد أنهى رسم الماء والهواء، وكان السطح يغتسل بضياء مصقع، غير ودِّي، والشجيرات والأوتاد على الشاطئ تطفو كأشباح وسط العتمة الرطبة، الشاحبة؛ وكان القارب الصغير غير المصقول وسط المياه مفكك الأجزاء وغير واقعي، وكان وجه الصياد أخرس وغير واضح المعالم، وحدها يده الممدودة بهدوء لتمسك بالسمكة كانت تتسم بحيوية عنيدة. وقد قفزت إحدى السمكتين وهي تلمع فوق شفير القارب؛ واستقرت الأخرى على طولها لاتبدي حراكاً وفمها المفتوح المستدير وعينيها الفزعة الجاسئة زاخراتٍ بمعاناة جسدية. وكان كل شيء يغلفه حزن بارد، وقاس تقريبياً لكنه ساكن، وخال من الرمزية بدرجة مثالية، اللهم إلا بقدر بسيط لايكتمل العمل الفني بدونه، مما يتيح لنا ليس فقط أن نشعر بإبهام الطبيعة كلها الثقيل الوطأة ولكن أيضاً أن نحبه بنوع من الدهشة الجميلة.

بعد أن أمضى الرسام مايقارب الساعتين جالساً أمام عمله، قرع الخادم الباب استجابة لنداء سيده الشارد كي يحضر له طعام الإفطار. فوضع بهدوء الأباريق، والكوب، وشريحة اللحم، ثم قرّب كرسياً، وانتظر قليلاً وهو صامت، وأعلن بحياء: «والإفطار جاهز، هر فيراغوث».

قال الرسام، وهو يمحو بإبهامه ضربة من الريشة كان قد وضعها على ذيل السمكة القافزة ها أنا قادم. ألا يوجد ماء حار؟

غسل يديه ثم جلس ليشرب قهوته.

قال بإنشراح «يمكنك أن تحشو لي الغليون يا روبرت؛ الصغير الذي بدون غطاء، لابد أنه في غرفة النوم».

ذهب الخادم، وأخذ فيراغوث يرشف القهوة الكثيفة بحماس، وقد تلاشت بوادر الدوار والإرهاق القليلة، التي صارت تنتابه مؤخراً بعد أن يبذل جهداً مضنياً، كتلاشي ضباب الصباح.

تناول الغليون من الخادم، وتركه يشعله له، وأخذ يستنشق بنهم الدخان العطري الذي كثف مذاق القهوة ونقّاه. وأشار إلى لوحته وقال: «أعتقد أنك وأنت صبي ذهبت لتتصيد يا روبرت؟» «نعم، هر فيراغوث».

«أنظر إلى تلك السمكة، ليس إلى المعلّقة في الهواء، بل إلى ذات الفم المفتوح. هل الفم صحيح؟».

قال روبرت بدون ثقة «صحيح»، ثم أردف بنبرة صوت مؤنبة وكأنه شعر بشيء من السخرة في السؤال «ولكنك تعرف أفضل مني».

«لا، يا صديقي، هذا غير صحيح. إن الإنسان لايدرك الأشياء بحدة ونضارة إلا في فترة الشباب الأول، حتى سن الثلاثة عشرة أو الرابعة عشرة؛ ويظل حتى آخر حياته يتزود من تلك التجربة. أنا عندما كنت صغيراً لم تكن لي أية علاقة بالسمك، لهذا تراني أسألك. فقل لي، هل الأنف صحيح؟»

قال روبرت، وقد رضي غروره «هو صحيح، صحيح

تماماً»، عاد فيراغوث إلى النهوض واقفاً وهو يتفحص ملوّنه. ونظر روبرت إليه. لقد كان متآلفاً مع تعبير التركيز ذاك الذي يتبدى في عيني سيده ويرسم عليهما نظرة كامدة؛ كان يعرف إنه هو، والقهوة، وحديثهما الوجيز يغيبان عن انتباه فيراغوث، وإنه إذا ما خاطبه بعد بضع دقائق سيبدو الرسام وكأنه قد استفاق من سبات عميق. ولكن ذاك التصرف خطر. وبينما كان روبرت ينظف المائدة، رأى البريد ملقى ولم يفتح.

قال بهدوء «هر فيراغوث».

كان مايزال يمكن التواصل مع الرسام. فألقى نظرة عدائية عبر كتفيه، بطريقة متوقعة تماماً من رجل مرهق إذا ما خاطبه أحدهم وهو يوشك أن يستغرق في النوم.

«بريدك»

قال روبرت هذا وغادر الغرفة. ضغط فيراغوث بحركة عصبية كمية من أزرق الكوبالت على ملوّنه، ثم رمى بالأنبوب إلى طاولة الرسم الصغيرة المكسوة بالرصاص، وباشر مزج ألوانه. غير أنه انزعج من تذكير الخادم له. فحط الملونه بنزق وتناول الرسائل.

كانت مراسلات عمل اعتيادية، دعوة للمساهمة في معرض جماعي، وطلب من صحيفة لتزويدها بمعلومات عن حياته، وفاتورة - ولكن بعد ذلك اجتاحته إثارة فرح عندما وقع بصره على خط كتابة يعرفه حق المعرفة؛ فتناول الرسالة وأخذ يقرأ بتأن إسمه الخاص وكل كلمة في العنوان، مستمتعاً بالطابع القوي لضربات القلم الحرة، الطائشة. وحاول أن يقرأ الختم البريدي. الختم إيطالي، وهو حتماً إما من نابولي

أو من جنوا. إذن فقد وصل صديقه إلى أوروبا، إنه ليس بعيداً جداً، ويمكن توقع وصوله في غضون بضعة أيام.

فتح الرسالة بانفعال ونظر برضى إلى نظام الأسطر القصيرة المستقيمة الصارم. إذا لم تخنه الذاكرة، فإن هذه الرسائل غير المنتظمة التي تصله من صديقه في الخارج هي مصدر الفرح الصافي الوحيد الذي بات يشعر به خلال السنوات الخمس أو الست الأخيرة باستثناء عمله والساعات التي يقضيها مع الصغير بيير. وها هو الآن، وهو وسط ترقبه المفرح، ينتابه من جديد إحساس غامض، مزعج، بالخجل لدى تفكيره في حياته المجدبة، المفتقرة إلى الحب. وأخذ يقرأ ببطء:

نابولي، ٢ حزيران، في الليل

عزيزي يوهان،

كالمعتاد، الفم المحشو بخمر الكيانتي مع السباغيتي الدسمة، وتعالي صراخ الباعة المتجولين خارج محل بيع الخمور، هما أول سمتين من الحضارة الأوروبية أعود إليهما مرة أخرى. وهنا في نابولي لم يتغير أي شيء خلال خمس سنوات، وهذا أقل بكثير مما يحصل في سنغافورة أو شنغهاي؛ وأنا أعتبر هذا بادرة جيدة مما شجعني على أن آمل في أن أجد كل شيء في المنزل أيضاً في حالة جيدة. بعد غد سوف نكون في جنوا، وهناك سوف نقابل ابن خالي. وسوف نزور أقرباءنا معاً. ولا أتوقع فورات عاطفية كبير في ذاك الحي لأني وبصراحة مطلقة لم أكسب حتى عشرة تاليرات خلال السنوات الأربع الأخيرة. أعتقد أني سأكرس الأيام الأربعة أو الخمسة على أكثر تقدير للإلتزامات العائلية

الملحّة، ومن ثم لدي عمل في هولندا، فلنقل إنه سيستغرق مني خمسة أو ستة أيام أخر، لذا يجب أن أكون معك في نحو يوم السادس عشر. وسوف تتلقى مني برقية. أحب أن أمكث معك على الأقل عشرة أيام أو أسبوعين، وأتدخل في عملك، لقد أضحيتَ تتمتع بشهرة واسعة، وإذا صح حتى نصف ما كنت تقوله قبل ما يربو على العشرين عاماً عن النجاح والمشاهير، فلابد أنك الآن قد أصبحت عجوزاً خرفاً. وأنا أنوي أن أشتري بعض اللوحات منك وأما تفجعاتي السابقة حول حالة العمل فهي مناورة لتخفيض الأسعار.

إننا نتقدم في العمر، يا يوهان. قمت برحلتي الثانية عشرة عبر البحر الأحمر ولأول مرة أعاني من شدة الحر. درجة الحرارة تبلغ ٥٤ في الظل.

تصور، أيها العجوز، لم يبقَ إلا أسبوعان! سوف يكلفك ذلك زجاجة من الموزيل. لم أرك منذ أكثر من أربع سنوات.

سوف تصلني رسالة ما بين التاسع إلى الرابع عشر من الشهر في أنتويرب، في فندق أوروبا. إذا كانت لديك أي لوحات لأعرضها في رحلاتي، اعلمني!

المخلص لك،

أوتو

أعاد قراءة الرسالة القصيرة وهو في أحسن مزاج بحروفها الثابتة القائمة، وترقيمها الحساس، وتناول من درج طاولة الكتابة الصغيرة الكائنة في الركن تقويماً، وهز رأسه تعبيراً عن الرضا عندما ألقى نظرة فيها. فحتى منتصف الشهر ستكون أكثر من عشرين لوحة من لوحاته معروضة في بروكسل. هذا حسن. وهو يعني أن صديقه الذي كان يخشى

عينه الثاقبة ولن يتمكن من أن يخفي عنه دمار حياته خلال السنوات الأخيرة، سيأخذ انطباعاً جيداً عنه، انطباعاً يفخر به. وسيسهِّل ذلك كل شيء. وتراءى له أوتو وهو بأناقته الماوراء محيطية والخشنة نوعاً ما يقطع صالة عرض بروكسل بخطى واسعة، يتفرج على لوحاته، أفضل لوحاته، واستولت عليه برهة من الزمن فرحة غامرة لأنه أرسلها إلى المعرض، على الرغم من أنه لم يبع منها حتى الآن إلا عدداً قليلاً. وللتو بعث برسالة إلى أنتويرب.

كان في نفسه ممتناً «إنه مازال يذكر كل شيء. إنه على حق. في آخر مرة تولهنا تماماً بشرب الموزيل، وذات ليلة سكرنا حقاً» بعد تفكير استنتج أنه حتماً لم يتبق أي موزيل في القبو، الذي نادراً ما يزوره، وقرر أن يطلب عدداً من الصناديق في ذاك اليوم بالذات.

بعد ذلك عاد إلى الجلوس من جديد ليواصل عمله، لكن ذهنه كان قد تشتت وشعر بالإضطراب وعجز عن استعادة تركيزه الصافي الذي تأتي فيه الأفكار الجيدة دون استدعاء، فوضع ريش الرسم في كأس، وأقحم رسالة صديقه في جيبه، وخرج يتمشى بتؤدة بخطى مترددة في الهواء الطلق. التمعت صفحة مياه البحيرة الرقراقة في وجهه. لقد أشرق صباح يوم صيفي صافي السماء، ورجَّعت جنبات أرض الرحبة المنقوعة بأشعة الشمس تغريد العديد من الطيور.

نظر في ساعة يده. حان وقت انتهاء دروس بيير الصباحية. وراح يتمشى لايلوي على شيء في أرض الرحبة، وينظر بشرود إلى الدروب البنية، المرقشة بأشعة الشمس، ويصيخ سمعه باتجاه المنزل، وسار بمحاذاة أرض لعب بيير

بأرجوحتها وتلال الرمل. وأخيراً اقترب من حديقة المطبخ ورفع بصره باهتمام عابر إلى تيجان أشجار كستناء الحصان السامقة بكتل أوراقها ذات الظلال القاتمة وإلى آخر الشموع ببريقها البهيج. وكان طنين النحل يقترب ويبتعد بتموجات ناعمة أثناء احتشاده حول الكثير من البراعم نصف المتفتحة على سياج الحديقة، وكان بالإمكان سماع دقات ساعة البريج الصغيرة المرحة في دار العزبة، من خلال تجمعات الأوراق القاتمة. وكان عدد الدقات خطأ، وعاد فيراغوث من جديد إلى التفكير في بيير، الذي كان طموحه الذي يفتخر به هو أن يغدو، فيما بعد عندما يكبر، مصلحاً للساعات العتيقة.

ثم سمع، من الجانب الآخر للسياج، أصواتاً ووقع خطى امتزجت بنعومة، وسط أثير الحديقة الصيفي، بطنين النحل وصراخ الطيور، وبالعبير الذي يهب بتكاسل من حاجز القرنفل وأزهار نبات الفاصولياء. إنها زوجته مع بيير؛ فتوقف لايبدي حركة وأخذ ينصت بانتباه.

سمع الأم تقول «إنها لم تنضج بعد، وعليك أن تنتظر بضعة أيام أخر».

كان جواب الصبي ضحكة مغردة. وبدت الحديقة النضرة التي تشملها السكينة وترجيع هذا الحوار الطفولي، الذي أخمدته هبات من النسيم، خلال برهة هشة عابرة من الزمن، ووسط سكون الصيف المشحون بالترقب، وكأنه يتناهى إلى فيراغوث من حديقة نائية من عهد طفولته. تقدم من السياج وأخذ يتلصص من خلال أوراق النبات إلى داخل الحديقة، فرأى زوجته واقفة مرتدية ثوبها الصباحي على الممشى

المشمس، وتحمل مقصاً كبيراً للزهور بيدها وعلى ذراعها علقت سلة بنية اللون رقيقة. ولم تكن تبعد عن السياج أكثر من عشرين خطوة.

راقبها الرسام برهة من الزمن. كان قوامها الممشوق مائلاً على الأزهار؛ ووجهها ذو التعبير الجاد، اللامبالي، مظللاً بكامله بقبعة من القش كبيرة، ومتهدلة.

سأل بيير «ما اسم تلك الأزهار؟». كان الضياء يتلاعب على شعره البني، وساقاه العاريتان نحيلتين لوّحهما الوهج الوضاء وعندما انحنى كشف قميصه الفضفاض عن بشرة ظهره الناصعة البياض تحت عنقه الشديد السمرة.

قالت الأم «إنها القرنفل».

قال بيير: «أوه، أنا أعرفها. أريد أن أعرف ماذا يقول النحل لها. لابد أن يكون لها اسم في لغة النحل أيضاً».

«طبعاً، ولكن ليس في إمكاننا أن نعرفه، وحده النحل يعرف. ربما يسميها أزهار العسل».

أخذ بيير يفكر في هذا.

أخيراً قرر قائلاً: «هذا ليس جيداً. إنه يعثر على العسل أيضاً في النفل أو في أبو خنجر؛ لايمكن أن يطلق الاسم نفسه على كل الأزهار».

كان الصبي يراقب بانتباه نحلة تطير حول كأس قرنفلة، ثم تتوقف في الفضاء باستخدام أجنحة طنانة، ومن ثم تخترق بنهم تجويف الزهرة.

قال بامتعاض: «أزهار عسل!»، ثم صمت. كان قد اكتشف قبل زمن طويل أن أجمل الأشياء وأكثرها إثارة

للإهتمام هي تلك التي يتعذر التعرف عليها أو فهمهما.

وقف فيراغوث خلف السياج وأنصت؛ وراقب وجه زوجته الهادئ والرصين والوجه الجميل، الرقيق قبل الأوان، لابنه الحبيب، وتحجر قلبه لدى تفكيره في أوقات الصيف التي كان خلالها ابنه الأول مايزال طفلاً صغيراً. لقد فقده، وفقد أمه أيضاً. لكنه لن يفقد هذا الطفل، لا لا، إنه يتجسس عليه من خلف سياجه كلص. ويستميله إليه ويكسب وده، فإذا فقده هو أيضاً، لن تتبقى أي رغبة في الحياة لديه.

ابتعد دون أن يصدر أي ضجيج على الممر المعشوشب وتراجع من تحت الأشجار.

قال في نفسه بنزق «التسكع ليس لأمثالي» وقسّى قلبه. ثم قفل عائداً إلى رسمه ونجح بحق، متغلباً على نفوره ومستسلماً إلى العادة القديمة، في إعادة أسر التوتر المجدّ الذي لايجيز أية استطرادات ويحشد كل الطاقات لأداء العمل رهن اليدين.

كانا ينتظران لتناول طعام الغداء في دار العزبة، ومع اقتراب الظهيرة اعتنى بإعداد هندامه؛ فحلق ذهنه، ومشط شعره، ولبس بذلة صيفية زرقاء اللون، ولعله لم يبد أصغر في السن ولكن أكثر نضارة ومرونة مما كان وهو بملابس العمل الرثة في المحترف. ومد يده لتناول قبعته القشية وكاد يفتح الباب عندما فتح باتجاهه وإذا ببيير يدخل.

«كيف حالك يا بيير؟. هل كان مدرّسك لطيفاً؟»

«أوه نعم، كل مافي الأمر أنه ممل. فعندما يحكي حكاية فهو لايفعل ذلك للاستمتاع بها، وإنما فقط لأنها درس آخر،

وتكون نهايتها دائماً تفيد بأن على الأطفال الطيبين أن يفعلوا هذا ولايفعلوا ذاك ـ أكنت ترسم، يا بابا؟».

«نعم، كنت أعمل على هاتين السمكتين. كادت تنتهي، ويمكنك أن تراها غداً».

أمسك بيد الصبي وخرج معه. لم يكن هناك في العالم بالنسبة إليه شيء يريحه أو يلمس الرقة والحنان الدفينتين فيه مثل السير بجوار الفتى، وضبط إيقاع خطوته مع خطواته القصيرة، والإحساس بيد الطفل الخفيفة المطمئنة في يده.

عندما تركا أرض الرحبة وبدءا يعبران المرج من تحت أشجار البتولا بأغصانها النحيلة المتدلية، تلفَّت الصبي فيما حوله وسأله: «بابا، هل تخافك الفراشات؟».

«لماذا تسأل؟ لا أعتقد ذلك. قبل قليل جلست إحداها على إصبعي»، «نعم، ولكن لايوجد أي منها هنا الآن، أحياناً عندما آتي لزيارتك وحدي وأسلك هذا الطريق، أرى دائماً الكثير والكثير من الفراشات على الدرب، واسمها الزرقاء، أعرف ذلك، وهي تعرفني وتحبني، وهي دائماً تطير من حولي وتدنو كثيراً مني. ألا نستطيع أن نطعم الفراشات؟».

«نستطيع حتماً، ويجب أن نحاول ذلك قريباً. ضع قطرة من العسل على يدك ومدّها بهدوء شديد إلى أن تأتي الفراشات وترشفها».

«رائع يا بابا، سوف نحاول. هلا طلبت من الماما أن تعطيني قليلاً من العسل؟ عندئذ ستعرف أني بحاجة ماسة إليه وإنها ليست مجرد حماقة مني».

ركض بيير متقدماً من خلال البوابة المفتوحة والرواق

الواسع؛ أما والده فكان مايزال يبحث عن منصب القبعات في الضوء المعتم، بعد أن بهره نور الشمس، ويتلمس باب غرفة الطعام، وذلك بعد أن ولج الصبي إلى الداخل بوقت طويل، وأخذ يلح بمناشدة أمه.

دخل الرسام وصافح زوجته. كانت أطول «نوعاً ما» قامة منه، قوية البنية صحيحة الجسم، ولكن الشباب كان قد غادرها، وعلى الرغم من إنها لم تعد تكنّ أي حب لزوجها إلا أنها كانت ما تزال تعتبر أن فقدانها لعاطفته أمر محزن بشكل مبهم وسوء حظ لامبرر له.

قالت بصوتها المتوازن «يمكننا أن نباشر الأكل فوراً. إذهب يا بيير واغسل يديك».

قال الرسام، وهو يقدم إليها رسالة صديقه: «لدي خبر؛ أوتو قادم قريباً، وآمل أن يطيل مكوثه. لا أظنك تمانعين؟».

«في وسع الهر بركهارت أن يأخذ غرفتيّ الطابق العلوي، وعندئذ لن يزعجه أحد وسيكون في إمكانه أن يدخل ويخرج كما يشاء».

«نعم، سيكون هذا تدبيراً جيداً».

قالت، بتردد: «حسبت أنه لن يأتي إلا بعد فترة أطول».

«لقد انطلق في وقت أبكر مما كان يتوقع. أنا نفسي لم أعرف إلا في هذا اليوم، حسن وذلك أفضل».

«الآن سوف يتواجد في وقت واحد مع ألبرت».

لدى ذكر إسم ابنه، تلاشى وهج السرور الباهت عن وجه فيراغوث وازدادت برودة صوته.

هتف بنزق: «ألبرت؟ كان من المفترض أن يذهب إلى

رول مع صديقه».

«لم أكن أرغب في أن اخبرك في وقت أسبق مما هو ضروري. لقد دعي صديقه لزيارة أقربائه وتخلى عن فكرة رحلة السير على الأقدام. وألبرت سوف يأتي حالما تبدأ عطلته».

«سيمكث هنا طوال الوقت؟».

«أعتقد ذلك. في إمكاني أن أسافر معه بضعة أسابيع، لكن ذلك لن يكون مناسباً لك».

«لماذا؟ إن بيير سوف يأتي ليقطن معي في المحترف».

«أرجوك لاتفتح هذا الموضوع من جديد. أنت تعلم أني لايمكن أن أترك بيير وحده هنا».

احتدم غضب الرسام، وصرخ بمرارة وحده! «إنه ليس وحده عندما يكون معي».

«لايمكنني أن أتركه هنا ولا أرغب في ذلك. لافائدة من إثارة أي جدال حول الموضوع».

«فهمت. أنت لاترغبين».

لزم جانب الصمت، لأن بيير كان قد عاد، وجلسوا جميعاً على المائدة. جلس الصبي بين والديه المتنافرين، وكان كل منهما يخدمه ويسليه كما اعتاد منهما. وحاول والده أن يطيل فترة تناول الطعام قدر ما أمكنه، لأن الولد بعد انتهاء وجبة الغداء سوف يبقى مع والدته وكان من المشكوك فيه أن يأتي إلى المحترف مرة أخرى في ذاك النهار.

2

كان روبرت موجوداً في غرفة الغسل الصغيرة المجاورة للمحترف مشغولاً بغسل المِلْوَنه ومجموعة من ريش الرسم. وظهر بيير في ممر الباب. فتوقف لايبدي أية حركة وهو يراقب.

بعد قليل قال: «هذا عمل سهل. الرسم عمل جيد جداً، لكني لن أريد أبداً أن أصبح رساماً».

قال روبرت: «ربما عليك أن تعيد التفكير في الأمر، عندما يكون والدك رساماً شهيراً».

قال بيير بحزم: «لا، لن أكون كذلك. إنه دائماً قذر ودائماً تفوح منه رائحة دهان قوية. أنا أحب أن أشمه قليلاً وهو على لوحة حديثة، مثلاً، وهي معلقة في غرفة ولاتفوح إلا رائحة خفيفة من الدهان؛ ولكن في المحترف رائحته قوية جداً، ولا أستطيع تحمله، إنه يسبب لي الصداع».

ألقى الخادم على الطفل نظرة حادة. كان يجب أن يلقي على مسمع هذا الطفل المدلل محاضرة جيدة منذ زمن طويل. هناك الكثير مما يستوجب الانتقاد فيه، ولكن عندما وقف بيير أمامه ونظر إلى وجهه، كان ذلك مستحيلاً. لقد كان وجهه غاية في النضارة والجمال والجدية؛ وكل شيء فيه بدا على أحسن ما يرام، وهذه الخصلة من السأم بالضبط، هذه

العجرفة أو النضج المبكر، كانت تليق به بشكل غريب.

سأل روبرت بشيء من القسوة «ماذا تريد أن تكون فعلاً، يا بني؟» أطرق بيير وتفكَّر. قال: «أوه، في الحقيقة لا أريد أن أكون أي شيء محدد. كنت أتمنى فقط لو أتخلص من المدرسة. وفي الصيف أحب أن أرتدي ملابس كلها بيضاء، وأنتعل حذاءً أبيض أيضاً، وأن لا ألوثها حتى بقبعة صغيرة جداً».

قال روبرت مؤنباً: «فهمت، فهمت، هذا ما تقوله الآن، ولكن عندما خرجت معنا في ذاك النهار، فجأة امتلأت ملابسك البيضاء ببقع الكرز والعشب، وأضعت قبعتك أيضاً. أتذكر؟».

جمد بيير، وأغمض عينيه إلا بمقدار شق صغير وحملق بغضب من خلال رموشه.

قال ببطء: «الماما عنّفتني بقسوة على ذلك، ولا أصدق أنها أعطتك أوامر لكي تثير الموضوع من جديد وتعذبني به».

اتخذ روبرت موقفاً استرضائياً، وقال: «إذن فأنت تريد دائماً أن ترتدي ملابس بيضاء ولاتلوثها أبداً؟»

«لا، أحياناً ألوثها. أنت فقط لاتفهم! طبعاً أريد أن أستلقي على العشب أحياناً، أو على القش، أو أن أقفز عبر البرك الموحلة. أو أن أرتقي شجرة. هذا واضح وضوح النهار. ولكن بعد أن أنتهي من الركض الجامح، لا أريد أن أتعرض للتعنيف. اريد فقط أن أتوجه بهدوء إلى غرفتي وأرتدي ملابس جديدة نظيفة، ومن ثم سيعود كل شيء إلى سابق عهده ـ أتعلم يا روبرت، أنا حقاً لا أرى فائدة من التعنيف». «إن هذا مناسب فعلاً. كيف ذلك؟».

«حسن، انظر: إذا فعلتُ أي شيء غير لائق، فأنا أعرف ذلك وأشعر بالخجل. وإذا ما عنّفني أحدهم، فإن خجلي يكون أقل كثيراً. وأحياناً أتعرض للتعنيف حين لا أكون قد فعلت أي شيء، فقط لأني لم أكن موجوداً عندما نادتني الماما، أو لأن الماما عكرة المزاج».

ضحك روبرت. ثم قال «عليك فقط أن تنظر إلى الأمر باعتدال. فكر في كل الأشياء الخبيثة التي لابد أنك تقوم بها دون أن يراك أحد وأن تفعلها ولاتتلقى أي تأنيب عليها».

لم يدل بيير بأي جواب. الوضع نفسه دائماً. فكلما انجرّ إلى نقاش مع شخص بالغ حول أمر ما فائق الأهمية بالنسبة إليه، ينتهي نهاية محبطة بل ومذلّة.

قال بنبرة صوت خلقت فجأة مسافة نفسية بينه وبين الخادم «أريد أن أتفرج على اللوحة ثانية»، وكان يمكن لروبرت أيضاً أن يعتبر هذا بمثابة أمر أو طلب. هيا، دعني أتفرج لحظة.

أطاع روبرت. فتح باب المحترف، وأدخل بيير، وتبعه، لأنه كان قد تلقى أوامر صارمة بأن لايدع أي إنسان وحده في المحترف.

كانت لوحة فيراغوث الجديدة، المؤطّرة بإطار مذهّب مؤقت، موضوعة على حامل موجود في منتصف الغرفة الكبيرة، وقد أديرت باتجاه النور. انتصب بيير أمامها. ووقف روبرت خلفه.

«أتعجبك، يا روبرت؟».

«طبعاً تعجبني. أكون أحمق إذا لم أفعل».

طرف بيير إلى اللوحة بعينيه دهشاً.

قال وهو مستغرق في التفكير: «أعتقد أن في إمكاني أن أميز لوحة من رسم بابا من بين عدد كبير من اللوحات. ولهذا أحب لوحاته، لأني أشعر أن البابا هو الذي نفذها. ولكن، الحق أقول لك، إنها لاتعجبني كثيراً».

قال روبرت، وقد أصابه الرعب، وهو يلقي نظرة مؤنبة إلى الصبي، الذي وقف يطرف بعينيه ويرنو إلى اللوحة، هادئاً. «كفى هراءًا».

قال: «في الواقع، ثمة رسومات قديمة هناك في المنزل أحبها أكثر. وعندما أكبر أريد أن أقتني لوحات مثلها. تمثل مثلاً جبالاً عند غروب الشمس وكل شيء مصطبغ باللون الأحمر والذهبي، أو أطفالاً لطيفين وسيدات وأزهاراً. مثل هذه الأشياء في الواقع أجمل بكثير من صورة صياد عجوز مثل هذا ليس له حتى وجه حقيقي، وقارب أسود قبيح. ألا توافق؟»

كان روبرت في دخيلته يوافقه تماماً؛ لقد دهش لصراحة الفتى بل وابتهج. لكنه لم يعترف بذلك.

قال باقتضاب فظ: «أنت أصغر بكثير من أن تفهم مثل هذه الأشياء. هيا الآن، يجب أن أقفل الباب».

في تلك اللحظة سمع صوت انفجار خفيف وانسحاق قادم من جهة بيت العزبة.

هتف بيير بفرح: «أوه، إنها سيارة!»، وركض خارجاً من تحت أشجار الكستناء، سالكاً قادوميات محرّمة عبر المروج وقافزاً فوق حواجز الأزهار. ووصل، لاهث الأنفاس، إلى

الممر المحصّى أمام المنزل في الوقت المحدد لرؤية والده والسيد المجهول يترجلان من السيارة.

هتف الوالد: «بيير!» وضمه بين ذراعيه «هاك صديق لم تعرفه. مد له يدك واسأله من أين قدم».

سدد الفتى نظرة مباشرة إلى الغريب، ومد للرجل يده ونظر إلى وجه متورد وعينين رماديتين ضاحكتين براقتين.

سأله طائعاً: «من أين أتيت؟»

رفعه الغريب بين ذراعيه، وقال مع تنهيدة مرحة، «إن وزنك يزداد حتى يتعذر عليّ حملك يا بني»، ثم حطه من جديد. تسأل: من أين أتيت؟ من جنوا وقبلها من السويس. وقبلها من عدن، وقبل ذلك من....»

«أوه، من الهند، أعرف، أعرف! وأنت العم أوتوبركهارت. أأحضرت لي نمراً أم جوز الهند؟»

«لقد هرب النمر، ولكن في إمكانك أن تحصل على جوز الهند والأصداف وألبومات الصور الصينية».

ولجا المنزل وتقدم فيراغوث صديقه، الأطول قامة بكثير منه، لدى صعود الدرج، محيطاً كتفيه بذراعيه بحب. وفي الطابق العلوي قابلا سيدة المنزل في الرواق. فرحبت، بحرارة متحفظة وإن كانت صادقة، بالضيف، الذي ذكرها وجهه المعافى البشوش بالأوقات السعيدة في سنوات خلت. ظل محتفظاً بيدها برهة وحدق إلى وجهها.

قال يجاملها: «لم تكبري على الإطلاق، فراو فيراغوث. لقد صدمت أكثر من يوهان».

قال بود: «أنت أيضاً لم تتغير قط».

ضحك. قال: «أوه، الواجهة مازالت في حالة جيدة، لكني تخليت عن الرقص. ثم إنه لم يفدني البتة، فلا أزال عازباً».

«آمل هذه المرة أن تكون قد جئت إلى أوروبا لتبحث عن زوجة».

«لا، فراو فيراغوث، لقد فات أوان ذلك. ولا أريد أن أفسد مكوثي في أوروبا. إن لدي أقارب، كما تعلمين، وأنا أتحول باضطراد إلى عم صاحب إرث. ولا أجرؤ على أن أدخل المنزل بصحبة زوجة».

قُدِّمت القهوة في غرفة فراو فيراغوث. وشربوا قهوة وكحولاً وتسامروا مدة ساعة من الوقت عن الرحلات المحيطية، ومزارع المطاط، والخزف الصيني. وفي أول الأمر لزم الرسام الصمت وقد انتابه شيء من الغم. فهو لم يكن قد وضع قدمه في تلك الغرفة منذ شهور خلت. ولكن كل شيء سار على أحسن مايرام وبوجود أوتو بدا أن جواً أفضل، وأبهج، وأكثر طفولية، قد ساد المنزل.

أخيراً قال الرسام: «أعتقد أن زوجتي ترغب في أن تأخذ قسطاً من الراحة. هيا يا أوتو، سأريك غرفتيك».

استأذنا ثم توجها إلى غرفتي الضيف. وكان فيراغوث قد أعد الغرفتين لصديقه، وأشرف على كل شيء شخصياً. فرتب الأثاث وفكر في كل شيء من اللوحات المعلقة على الجدار إلى الكتب الموضوعة في الخزانة. وعلَّق فوق السرير صورة فوتوغرافية قديمة، هي صورة مضحكة مؤثرة لأيام المدرسة يعود تاريخها إلى سبعينات القرن الماضي. وقد لفتت نظر

الضيف، فاقترب وأخذ يتأملها.

هتف مذهولاً: «يا إلهي! هؤلاء نحن، الستة عشر كلهم! يا لها من فكرة مؤثرة! إني لم أرها منذ عشرين عاما!».

ابتسم فيراغوث: «نعم، رأيت إنها ستفرحك. آمل أن تكون قد وجدت كل ما تحتاج إليه. هل تريد أن تفرغ أمتعتك الآن؟»

جلس بركهارت باستقامة على صندوق الأمتعة الكبير ذي الزوايا النحاسية وراح ينظر فيما حوله برضا. قال: «هذا ممتاز. وأين مسكنك؟ أفي الغرفة المجاورة؟ أم في الطابق العلوي؟»

عبث الرسام بمقبض الحقيبة الجلدية، وقال ارتجالاً: «لا، أنا أقطن هناك في المحترف الآن. لقد زودته بملحق».

«يجب أن تريني إياه لاحقاً. ولكن... أتنام هناك أيضاً؟»

أسقط فيراغوث الحقيبة واستدار. «نعم، أنام هناك أيضاً»، غاص صديقه في تفكير صامت، ثم تناول الحقيبة وأخرج منها حزمة من المفاتيح وأخذ يصلصلها: «هلا أفرغنا بعض الأغراض؟ إذهب وأحضر الصبي، سوف يستمتع بذلك».

خرج فيراغوث وسرعان ماعاد مع بيير.

«أمتعتك جميلة، يا عم أوتو، كنت أتفرج عليها. وهناك الكثير من الرقع. قرأت ما كتب على بعضها. إحداها تقول بينانع. ماهي بينانغ؟».

«إنها مدينة في الملايو حيث أذهب أحياناً. هيا، في

إمكانك أن تفتح هذه».

أعطى الصبي مفتاحاً مسطحاً ومعقداً وطلب منه أن يفتح حقيبة سفر. فانفتحت بحركة نابضة، وكان أول ما قابل عينيه سلة مسطحة مقلوبة مصنوعة من الأماليد الملاوية المجدولة والبراقة الألوان، فقلباها وأزالا عنها أوراق اللف؛ فإذا في داخلها أصداف غريبة الشكل جميلة، ملفوفة بالورق والخرق، كالتي تعرض للبيع في المرافئ الأجنبية.

كانت الأصداف هدية لبيير، الذي عقدت شدة الفرح لسانه، وبعد الأصداف كان فيل من الأبنوس ولعبة صينية ذات أشكال خشبية متحركة عجيبة، وأخيراً لفة من قماش صيني مبهرج الألوان، مملوء برسوم الآلهة، والشياطين، والملوك، والمحاربين، والتنانين.

بينما كان الرسام يشارك الصبي في إبداء إعجابه بهداياه، أفرغ بركهارت الحقيبة الجلدية ووضع الخف، والملابس الداخلية والفراشي، وما إليها، كل في مكانه المخصص. ومن ثم عاد إلى صديقيه.

قال بمرح: «حسن، يكفينا عملاً هذا اليوم، والآن إلى الاستمتاع. هل نستطيع أن نلقي نظر على المحترف؟»

رفع بيير بصره، ومن جديد، وكما حدث عندما وصلت السيارة، فإن وجه والده المفعم بالحياة، والذي أصبح أكثر شباباً مع السرور، ملأه دهشة.

قال مستحسناً: «أنت مبتهج جداً، يا بابا».

وافق فيراغوث قائلاً: «هذا صحيح».

لكن صديقه سأل: «ألا يكون هكذا عادة؟»

نقل بيير بصره من أحدهما إلى الآخر في حيرة.

قال بتردد: «لا أدري»، لكنه عاد فضحك ورفع صوته قائلاً: «لا، أنت لم تكن قط مبتهجاً هكذا».

انطلق حاملاً سلته الملأى بالأصداف. وأمسك أوتو بركهارت ذراع صديقه وخرجا معا. وقاده فيراغوث عبر الأرض الرحبة في طريقهما إلى المحترف.

على الفور ألقى بركهارت ملاحظته: «نعم، أستطيع أن أميز التغير. يجب أن أعترف بأنه يبدو جميلاً جداً. متى فعلت هذا؟!».

قبل مايقارب الثلاث سنوات. وقد وسّعت المحترف أيضاً.

تلفت بركهارت فيما حوله. «البحيرة رائعة. فلنسبح قليلاً هذا المساء. لديك مكان جميل هنا يا يوهان. لكني الآن أريد أن أشاهد المحترف. هل لديك لوحات جديدة هنا؟».

«ليس كثيراً. ولكن هناك واحدة أريد منك أن تراها، لقد أنهيتها يوم أمس الأول. أعتقد أنها جيدة».

فتح فيراغوث الأبواب. كان المحترف العالي مرتباً بشكل مبهج، والباب ملمّع كما الجديد، وكل شيء في مكانه المخصص. وكانت اللوحة الجديدة قائمة وحدها في وسط الغرفة. فوقفا في مواجهتها صامتين. كان الجو المثقل بالبرودة الرطبة للفجر المطير الموحش، يتباين والنور الصافي والجو الحار المنقوع بأشعة الشمس المتسللة من خلال الأبواب.

ظلا يتفرجان على العمل فترة طويلة.

«أهذه آخر لوحة رسمتها؟»

«نعم. إنها تحتاج إلى إطار مختلف، وإلا فليس هناك ما يضاف إليها. أتعجبك؟»

تبادل الصديقان النظرات الثاقبة. كان بركهارت الأطول قامة والأضخم جثة بوجهه المتورد وعينيه الدافئتي النظرات والزاخرتين بالاستمتاع بالحياة واقفاً كطفل كبير أمام الرسام، الذي بدا وجهه حاد التقاطيع وقاسياً مع شعره الشائب قبل الأوان.

قال الضيف ببطء: «لعلها أفضل لوحاتك. لقد شاهدت تلك المعروضة في بروكسل والاثنتين الموجودتين في باريس. لم أكن أتوقع أن تتقدم إلى هذه الدرجة خلال تلك السنوات القليلة».

«يسرني أن أسمعك تقول هذا. إنه رأيي أيضاً. لقد بذلت فيها جهداً مضنياً، أحياناً يخطر لي أنني قبل هذه لم أكن أكثر من هاو. لقد تأخرت في تعلم الرسم على أصوله، أما الآن فقد تضلعت فيه ولعلني لن أتفوق على نفسي. لم يعد في إمكاني أن أنفذ ما هو أفضل منها».

«أنا أفهمك. حسن، لقد أضحيت واسع الشهرة، بل لقد سمعت الناس يتحدثون عنك على متن بواخرنا القديمة العاملة على خط شرق آسيا، وكنت أشعر بالفخر. ماهو شعورك وأنت شهير؟ أيسعدك ذلك؟».

«سعيد؟ لا، لن أقول هذا. يبدو لي وضعاً منصفاً. لعل هناك اثنين، ثلاثة، أربعة رسامين يتفوقون عليّ ولديهم أكثر مما لدي ليقدمونه. إنني ما عددت نفسي قط من بين العظماء

حقاً؛ ومايقوله الصحفيون محض هراء. إن لي الحق في أن أُعامل بجدية. وما دام هذا هو الحال، فأنا راض. أما ما عدا ذلك فهو مجد صحفي أو قضية مال».

«أعتقد ذلك. ولكن ماذا تقصد بالعظماء حقاً؟».

«الملوك والأمراء. إن مثلي يمكن أن يصبح قائداً أو وزيراً، وهذا أبعد ما يمكنه بلوغه. وأقصى ما في وسعنا أن نفعله هو أن نعمل بكد وأن نتناول الطبيعة بأكبر قدر من الجدية. والملوك هم أخوة الطبيعة وأصدقاؤها، يمرحون معها، ويبدعون في حين نكتفي نحن بالتقليد. ولكن طبعاً ليس هناك العديد من الملوك، وبالكاد يظهر واحد كل مئة عام».

راحا يتجولان في المحترف. كان الرسام يحدق إلى الأرض، أثناء بحثه عن الكلمات المناسبة، وصديقه يسير بمحاذاته ويحاول أن يستقرئ وجهه النحيل الشاحب.

عند الباب المؤدي إلى الغرفة الملصقة، توقف أوتو. قال: «ما رأيك في أن تريني غرفة مسكنك؟ ودعنا ندخن سيجاراً».

فتح فيراغوث الباب، وولجا إلى غرفة المعيشة وعاينا الغرفتين الأخريين الصغيرتين. أشعل بركهارت سيجاراً، ثم دخل غرفة نوم صديقه، ورأى سريره، وراح يتفحص بعناية الفجوات الجدارية المملوءة بأدوات الرسم وملحقات التدخين. وكان الجو العام يغلب عليه طابع الفاقة؛ منزل عازب متقشف، مجدّ في عمله.

قال بجفاف: «إذن فقد استقريت هنا»، «لكنه لم يستطع أن يلمّ بكل ماحدث خلال السنوات القليلة الأخيرة ويشعر به.

وأخذ يعاين برضى الأغراض التي توحي بأنواع الرياضات، بترويض العضلات، بركوب الخيل، ولاحظ باهتمام غياب أي دليل على الرفاهية، أو المتع الجسدية، أو استمتاع بوقت الفراغ.

بعد ذلك، عاد إلى موضوع الرسم. إذن هكذا تنفَّذ هذه اللوحات، التي تعلَّق في مواقع مشرقة من المعارض في كل أرجاء العالم وتباع بأسعار مرتفعة؛ إنها تنفّذ في غرف لاتشهد إلا العمل وإنكار الذات، حيث لاشيء بهيج، لاشيء بلا فائدة، لا حلى رخيصة عزيزة، لاطُرَف، لا عبير نبيذ أو أزهار، لاذكرى من نساء.

كان ثمة صورتان فوتوغرافيتان مثبتتان بمسامير فوق السرير الضيق، واحدة تصور بيير الصغيرة وواحدة لأوتو بركهارت. وتذكرها بركهارت جيداً. كانت لقطة سيئة، تبينه وهو يعتمر خوذة استوائية ومن خلفه تظهر شرفة منزله الريفي الهندي؛ وتحت مستوى الصدر تنحل الصورة إلى شرائط طويلة غامضة حيث وقع الضوء على الصحن.

«المحترف جميل. ثم كم أصبحت مُجدّاً في عملك! أعطني يدك، يا صديقي العزيز، رائع أن أجتمع بك من جديد، أما الآن فأنا تعب، دعني أختفي مدة ساعة من الزمن. هلا عرّجت عليّ لاحقاً لكي ننسج أو نتمشى؟ رائع. لا، لا أحتاج إلى أي شيء. سأكون على مايرام بعد ساعة. إلى اللقاء حتى ذلك الحين».

أخذ يبتعد بخطى متمهلة ماراً من تحت الأشجار وفيراغوث يتابعه ببصره، يراقب كيف تنضح قامته ومشيته وكل تضاعيف ملابسه بالثقة بالنفس وبالاستمتاع الرائق بالحياة.

توجه بركهارت إلى منزله، لكنه تجاوز غرفتيه، وارتقى الدرج، وقرع على باب فراو فيراغوث.

«إذا لم يكن في الأمر إزعاج، هل لي أن أنضم إليك بعض الوقت؟».

سمحت له بذلك وهي تبتسم؛ ولاحظ أن الابتسامة الوجيزة غير المتقنة على وجهها الرصين تنم بشكل غريب عن عجز.

«المكان رائع هنا في روسهالده. لقد تمشيت لتوي في الأرض الرحبة وعرجت على البحيرة. ثم كم أصبح بيير قوياً! إنه شديد الجاذبية، وكاد أن يجعلني أرثي نفسي لأني عازب».

«إنه جميل، أليس كذلك؟ أتعتقد أنه يقتفي خطى زوجي؟».

«نعم، قليلاً. حسن، في الحقيقة أكثر من ذلك. إنني لم أعرف يوهان عندما كان في مثل سنه، لكني لا أزال أذكر جيداً كيف كان يبدو عندما كان في الحادية عشرة أو الثانية عشرة ـ بالمناسبة، يبدو عليه الإرهاق قليلاً. ما رأيك؟ لا، أنا أتكلم عن يوهان. هل كان يرهق نفسه في العمل مؤخراً؟».

حدقت فراو فيراغوث إلى وجهه؛ لقد شعرت أنه يسبر أعماقها.

قالت ببرود: «أعتقد ذلك؛ إنه نادراً ما يتحدث عن عمله.»

«على ماذا يعمل الآن؟ أعلى المناظر الطبيعية؟»

«إنه غالباً ما يمارس الرسم في الرحبة، عادة مع موديلات. هل رأيت أياً من لوحاته؟»

«نعم، في بروكسل».

«أيعرض في بروكسل».

«أوه، نعم، وعدداً كبيراً من لوحاته. لقد أحضرت معي فهرساً، في الواقع أريد أن أشتري إحداها ويسرني أن أعرف رأيك في هذا»، سلمها الفهرس وأشار إلى نسخة صغيرة عن لوحة. فنظرت إلى الصورة، وراحت تقلب أوراق الفهرس، ثم أعادته.

«أخشى أني لا أستطيع أن أساعدك يا سيد بركهارت، إنني لم أر اللوحة الأصلية. أعتقد أنه رسمها في الخريف الفائت في البرينيس ولم يحضرها قط إلى هنا».

بعد برهة صمتٍ غيَّرتْ الموضوع. «لقد قدَّمت لبيير الكثير من الهدايا، وهذا لطف ضافٍ منك. شكراً لك»».

«أوه، إنها مجرد أشياء صغيرة. لكن يجب أن تسمحي لي أن أقدم لك أنت أيضاً شيئاً جلبته من آسيا. لا أظنك تمانعين؟ لدي بعض القطع من القماش أريد أن أريك، وعليك أن تنتقي منها مايعجبك»».

لقد نجح، بتحويل مناوشتها المؤدبة إلى معركة كلامية صغيرة، لبقة، نزوية، في التغلب على تحفظها وفي أن يثير لديها روح المرح. وذهب إلى مجموعته النفيسة وعاد مع ملء ذراع من الأقمشة الهندية. فمدَّ أمامها قماشاً مالاوياً مطبوعاً وبضائع يدوية الصنع ورمى بمخرمات وحرائر على ظهور الكراسي، وكان طوال الوقت يخبرها عن المكان الذي عثر فيه على هذه القطعة وتلك، وكيف كان يماحك لأجلها ومن ثم اشتراها بثمنٍ بخس، وأصبحت الغرفة بازاراً صغيراً غنياً

بالألوان. وطلب رأيها، وعلَّق شرائط من المخرمات على ذراعيها، وشرح لها كيف صُنعت، وجعلها تفرش أجمل القطع، وتتفحصها، وتتحسسها، وتطويها، وأخيراً تحتفظ بها.

بعد أن انتهى، ضحكت وقالت: «لا، سأجعل منك متسولاً. لايمكنني أن أحتفظ بها كلها».

ضحك بدوره وقال: «لاتقلقي، لقد زرعت لتوي ستة آلاف شجرة مطاط، وقريباً سأتكرس كأحد أصحاب الثروات».

عندما حضر فيراغوث ليأخذه، وجدهما يتسامران وهما في أقصى حالات المرح. وذهل إذ رأى كم أضحت زوجته مهذارة، وحاول عبثاً أن يشاركهما الحديث، وأطرى الهدايا بطريقة خرقاء.

قال صديقه: «لا عليك، هذا مكان مخصص للسيدات. هيا بنا نسبح!» ثم خرج بصديقه إلى الهواء الطلق.

«الحق أقول، إن زوجتك لايبدو أن عمرها زاد على الإطلاق منذ أن رأيتها آخر مرة. الآن فقط كانت في حالة نفسية عالية. يبدو أنكم جميعاً في أحسن حال. ولكن ماذا عن ابنك الأكبر؟ ماذا يفعل؟»

«هز الرسام كتفيه وعبس، سوف تراه، سيصل إلى هنا بين يوم وآخر. لقد كتبت لك عنه».

فجأة توقف لا يبدي أية حركة، ثم مال على صديقه، ونظر مباشرة في عينيه، وقال بهدوء «سوف ترى كل شيء، يا أتو. لا أرى أني بحاجة إلى أن أتحدث عن الأمر. سوف ترى ـ يجب أن نقضي وقتاً مرحاً بحق طوال فترة وجودك

هنا. هيا ننزل إلى البحيرة. أود أن أتسابق معك في السباحة، كما كنا نفعل ونحن صبية».

قال بيركهارت؛ الذي لايبدو أنه لاحظ اضطراب يوهان: «فكرة جيدة. وسوف تفوز، أيها العجوز، وهذا ما لم يكن يحدث دائماً. إذ يخجلني بحق أن اقول إنه قد أصبح لي كرش».

كان وقتاً متأخراً من النهار، والبحيرة كلها تقع في الظل، وثمة نسائم تعبث بذرى الأشجار، وعبر جزيرة زرقاء ضيقة من السماء، تركتها الأرض الرحبة مفتوحة فوق الماء طافت غيوم بلون بنفسجي خفيف، كلها من شكل ونوع متشابهين، في صف أخويّ، رفيع ومتطاول مثل أوراق شجر الصفصاف. ووقف الرجلان خارج حجرة تغيير الملابس الصغيرة المختفية بين الشجيرات؛ ورفض القفل أن يُفتح.

قال فيراغوث: «لا عليك، إنه صدئ. إننا لانستعمل حجرة تغيير الملابس قط».

أخذ يتعرى وحذا بركهارت حذوه. وعندما بلغا الشاطئ وباتا مستعدين للسباحة، وبينما يختبران المياه الظليلة الهادئة بطرفيّ إصبعي قدميهما، هبّت عليهما معاً وعلى الفور نسمة عذبة من السعادة قادمة من أيام الطفولة الغابرة؛ وظلا واقفين دقيقة أو اثنتين في حالة توقع للبرودة اللذيذة، وتكشّف وادي أصياف طفولتهما الأخضر النضر برفق في قلبيهما. ولما لم يكونا معتادين على المشاعر الرقيقة، فقد وقفا مع شيء من الإرتباك والصمت، وهما يغمسان أقدامهما في المياه ويراقبان أشباه الدوائر الفارّة فوق المرآة الخضراء المشوبة باللون البني.

ثم خطا بركهارت بسرعة في الماء.

تنهد بابتهاج حسي: «آه، إنها لذيذة. أتدري، مازال شكلانا مقبولين؛ باستثناء كرشي، فإننا مازلنا شابين قويين رائعين»، راح يجدف براحتي كفيه، وهز جسمه، وغاص.

قال حاسداً: «إنك لاتدرك طِيبَ ما أنت فيه. إن أجمل الأنهار يخترق مزرعتي، ولكن إذا مددتَ ساقكَ فلن تراها بعد ذلك؛ إنه مملوء بالتماسيح الرهيبة. والآن فلننطلق بأقصى سرعة، لإحراز كأس روسهالده. سوف نسبح حتى الدرج الذي هناك ونعود ثانية. مستعد؟ واحد... اثنان... ثلاثة...»

انطلق الاثنان بوجهين ضاحكين بسرعة معتدلة، لكن كان مايزال نسيم حديقة الشباب يهب عليهما، وسرعان ما أخذا يتسابقان بشكل جدي؛ ووجهاهما يزدادان توتراً، وعيونهما تومض، وأذرعهما تلمع وهما يلوحان بها خارج المياه. ووصلا إلى الدرج معاً ومعاً انطلقا عائدين، وهنا أخذ الرسام يشد عزمه بضربات أقوى، وتقدم، ووصل إلى النهاية قبيل صديقه بقليل.

خرجا من الماء وهما يلهثان، وعركا عيونهما، وضحكا معاً في استمتاع صامت. وبدا لهما معاً أنهما لم يعودا صديقين من جديد إلا عندئذ، وأن ظل الغربة والاغتراب الذي خيم عليهما بشكل يتعذر تجنبه قد بدأ لتوه يتلاشى.

بعد أن ارتديا ملابسهما جلسا متجاورين بوجهين منتعشين وإحساس بالخفة على حجر الدرج المؤدي أسفلاً إلى البحيرة. ومدَّا أبصارهما عبر المياه الداكنة التي تاهت في الغسق البني الضارب إلى السواد للغار المعلق عبر البحيرة، وراحا يأكلان ثمار كرز لحيمة، بلون أحمر فاتحاً

قدمها لهما الخادم ضمن حقيبة ورقية بنية اللون، وواصلا النظر بقلبين مشرقين مع ازدياد حلكة المساء، إلى أن باتت الشمس المنحدرة تسطع أفقياً من خلال جذوع الأشجار وأضاءت ألسنة اللهب الذهبية أجنحة اليعاسب الشفافة. وأخذا يتسامران بدون توقف أو تفكير لما يقارب الساعة من الزمن حول أيام المدرسة، وعن أساتذتهما وزملائهما في الدراسة، وإلى ما آل أمر هذا أو ذاك.

قال أوتو بركهارت بصوته القوي والصافي «يا إلهي، لقد مرّ على ذلك زمن طويل! ألا يعرف أحد ماذا حل بميتا هايلمن؟».

تدخل فيراغوث بلهفة: «آه، ميتا هايلمن! ألم تكن فتاة جميلة؟ لقد كانت حقيبة لوحاتي ملأى برسوم شخصية لها رسمتها على ورق النشاف أثناء حصص الدرس. ولم أكن أنجح قط في رسم شعرها كما ينبغي. أتذكر كيف كانت تصفف شعرها على شكل لفتين ثخينتين فوق أذنيها؟»

«ألم تصلك أية أخبار عنها؟».

«لا. عندما عدت من باريس لأول مرة، كانت مخطوبة إلى محام. وقد قابلتها في الشارع مع أخيها، وأذكر كم غضبت من نفسي لأني لم أغالب احمرار وجهي خجلاً، وعلى الرغم من شاربي ومن حنكتي الباريسية شعرت كأني تلميذ مدرسة أبله. ـ ليت فقط اسمها لم يكن ميتا. لم أكن أحتمل ذلك الاسم».

«هز بركهارت رأسه المستدير بحركة حالمة».

«وأنت لم تمر بتجارب حب كفاية يا يوهان، أما أنا فرأيت أن اسم ميتا رائع، ولايهمني إن كان اسمها يوليالا،

وكنت مستعداً لأقتحم النار من أجل نظرة من عينيها».

«أوه، لقد عرفت الحب معرفة كافية. ذات يوم كنت عائداً من فترة الساعة الخامسة الحرة ـ كنت قد تأخرت عن قصد، وأنا وحدي ولاأفكر في أي شيء آخر غير ميتا، وكنت أعرف أني سأعاقب ولم أكترث ـ وإذا بي أراها، قادمة نحوي، عند استدارة المنعطف. كانت مع صديقة لها متشابكتي الذراعين. وفجأة لم أتمالك نفسي من تخيل إحساسي فيما لو كنت أنا الذي أتشابك معها بالأذرع بدل تلك الحمقاء. لقد كانت شديدة القرب مني حتى أن رأسي بدا يتمايل وكان لابد أن أتوقف قليلاً واستند إلى الجدار وعندما استعدت وعيي أخيراً، كانت البوابة قد أغلقت؛ وبات عليّ أن أرن الجرس وعوقبت بساعة سجن».

ابتسم بركهارت وتذكر كيف أنهما خلال عدة لقاءات من لقاءاتهما النادرة تبادلا الذكريات عن ميتا. وعندما كانا صبيين كانا يبذلان أقصى الجهود ليخفي كل منهما حبه عن الآخر، وبعد ذلك بسنوات قليلة فقط أصبحا بين حين وآخر يرفعان الحجاب ويتبادلان البوح بتجاربهما الصغيرة. وحتى الآن لم يخبر أي منهما القصة كلها للآخر وتذكر بركهارت كيف ظل طوال شهور طويلة يحتفظ بأحد فردتي قفاز ميتا ويتعبده، وكان قد عثر عليه أو في الواقع سرقه، وتلك الحادثة مازالت مجهولة من صديقه. وفكر في أن يتخفف من عبء تلك القصة الآن، لكنه في نهاية المطاف ابتسم بمكر ولم يفه بأية كلمة، مستمتعاً بالاستئثار بتلك الذكرى الصغيرة الأخيرة.

3

كان بركهارت جالساً بارتياح وظهره متكئاً على كرسي من الأماليد المجدولة، وقبعته البناميّة الكبيرة مائلة على قفا رأسه، يقرأ في مجلة ويدخن تحت شجرة مرشوشة بأشعة الشمس، في الجانب الغربي من المحترف؛ وعلى القرب جلس فيراغوث على كرسي معسكر صغير، وحامل لوحاته أمامه. فرسم شكل الرجل القارئ بخطوط أولية، ثم وُضعت كتل الألوان الكبيرة في مكانها، ثم عمل على رسم الوجه، وإذا باللوحة كلها بهيجة براقة، خفيفة كالريشة، مشبعة بالشمس، وتدرجات ألوانها مع ذلك معتدلة. كان الهواء مطيّباً بعبق الألوان الزيتية ودخان السيجار، والعصافير المختفية بين أوراق النبات تطلق صراخها الرفيع، المكتوم، الظُهري وتغرد بنغمات جِوارية ناعسة، حالمة. وكان بيير مستقراً على الأرض يعمل بإهمال وعجلة فوق خارطة كبيرة على وصف رحلات عويصة بسبابته الرقيقة.

صرخ الرسام: «لاتستغرق في النوم!».

طرف بركهارت بعينيه وهو ينظر إليه، وابتسم، وهز رأسه. ثم سأل الصبي: «إلى أين وصلت، يا بيير؟».

أجاب الصبي، بلهفة: «انتظر، يجب أن اقرأه» ونطق باسم

مكتوب على الخريطة «إلى لو ـ لوس ـ إلى لوسرن. ثمة بحيرة أو محيط. أهي أكبر من بحيرتنا، يا عم بركهارت؟».

وأكبر بكثير. «أكبر بعشرين مرة. يجب أن تذهب إلى هناك يوماً ما».

«أوه، نعم. عندما سيصير عندي سيارة سأذهب إلى فيينا ولوسرن وإلى بحر الشمال وإلى الهند، حيث بيتك. ولكن هل ستكون موجوداً في منزلك؟».

«بلا ريب، يا بيير. أنا دائماً أكون في بيتي عندما يأتيني ضيوف. وعندئذ نذهب ونشاهد قردي، الذي اسمه بِنْدَك، وهو بلا ذيل ولكن لديه سالفين أبيضين بلون الثلج، وبعد ذلك نأخذ بنادق ونخرج إلى النهر بقارب ونطلق النار على الخ».

اهتز جذع بيير النحيل إلى الأمام وإلى الخلف باستمتاع وتابع العم بركهارت حديثه حول مزرعته في أدغال مالايو، وكان يتحدث بأسلوب مبهج ويطيل في الحديث حتى أن الصبي أصيب في النهاية بالضجر، ولم يعد في مقدوره أن يتابعه، وواصل بشرود ترحاله على الخريطة، لكن والده ظل ينصت طوال الوقت بانتباه إلى صديقه، الذي كان يتكلم بسيماء من الرفاهية المتكاسلة عن العمل والصيد، عن النزهات على صهوة جواد وفي القوارب، عن قرى أثيرية جميلة مكونة من خشب البامبو، والقرود، وطيور مالك الحزين، والنسور والفراشات، معطياً بذلك لمحاً مغرية من حياته الهادئة، المنعزلة في الغابة الاستوائية حتى أن الرسام شعر كأنه يتلصص من خلال شق على فردوس مشرق بالسعادة، وغني بالألوان. سمع قصصاً عن أنهار عظيمة صامتة تشق الغابة،

عن برار تعج بسرخس سامق كالأشجار، عن سهول مترامية ينمو فيها عشب اللالاتع حتى يبلغ قامة الإنسان؛ وعن أماسي براقة بالألوان على شاطئ البحر قبالة جزر مرجان وبراكين زرقاء، عن موجات عنيفة غاضبة من الأمطار الغزيرة وعواصف مضطرمة، عن أمسيات حالمة تدعو إلى التأمل قضاها على الشرفات العريضة المظللة في منازل المزرعة البيضاء عندما تغوص النهارات الحارة في الغسق، عن شوارع مدينة صينية صاخبة، وعن أهل مالايو عندما يأخذون قسطاً من الراحة عند هبوط الليل بجانب البركة الحجرية الضحلة الكائنة أمام الجامع.

مرة أخرى، كمرات عديدة قبلها، قام فيراغوث بزيارة منزل صديقه النائي في مخيلته، غير مدرك على الإطلاق أن توقه المضمر يلتقي مع نوايا بركهارت. وما فتنه بواسطة الصور وأهاج توقه لم يكن فقط تلألؤ البحار الاستوائية والأرخبيلات، أو العبث المنعم بالألوان للأناس البدائيين شبه العرايا، بل زيادة على كل هذا، العالم النائي الذي يسوده الهدوء، حيث تتلاشى آلامه وهمومه، وصراعاته وحرمانه، حيث يطرح عقله جانباً مئات من أعبائه الصغيرة ويلفّه جو جديد، نقي، خال من كل إحساس بالذنب ومعاناة.

انصرم النهار، وامتدت الظلال. كان بيير قد ركض مبتعداً قبل ذلك بوقت طويل، وكان بركهارت قد ركن بالتدريج إلى الصمت وغلبه النعاس، لكن اللوحة كادت تنتهي. فأغمض الرسام عينيه المتعبتين برهة، وترك يديه تتدليان، وأخذ يستنشق باستمتاع مؤلم تقريباً الصمت المشمس العميق لتلك

الساعة، ووجود صديقه، وإرهاقه المخفّف بعد إنجاز عمل ناجح، وفتور أعصابه المرهقة. وكان منذ ردح طويل قد أخذ يجد أعمق وأشد متعة مريحة في تلك اللحظات الرقيقة من الاسترخاء المضجر، إذا ما قورن بحالات الخدر الخاملة المريحة بين النوم واليقظة ـ كل هذا إلى جانب الهوس بالنشاط غير المحدود.

نهض واقفاً بهدوء خشية أن يوقظ بركهارت، وحمل لوحته بعناية وتوجه إلى المحترف. وهناك خلع سترة الرسم الكتانية، وغسل يديه، وحمَّم عينيه المتوترتين قليلاً بالماء البارد. وبعد بضع دقائق خرج، وألقى نظرة مستعجلة إلى وجه ضيفه الغافي، ومشى ثم أيقظه بالصفير المألوف القديم الذي كانا قد اتخذاه قبل عشرين عاماً كإشارتهما السرية ودلالة على التعارف.

قال بمرح: «إذا كنت قد نلت كفايتك من النوم، أيها العجوز، يمكنك أن تزيدني من حديثك عن الهند، فعندما كنت أعمل كنت فقط نصف منصت. كنت تقول شيئاً عن صور فوتوغرافية؛ أهي بحوزتك، هل نستطيع أن نراها؟».

«نستطيع حتماً؛ هيا بنا».

لقد كان بركهارت يصبو منذ بضعة أيام إلى هذه اللحظة. فلطالما رغب في استدراج فيراغوث إلى شرق آسيا والاحتفاظ به هناك معه بعض الوقت. وخيل إليه أن هذه هي الفرصة الأخيرة المتاحة، وكان يعدُّ لها إعداداً منهجياً. ولما جلس الاثنان في غرفة بركهارت وراحا يتحدثان عن مشهد الهند في ضوء المساء، أخذ يخرج ألبوماً بعد ألبوم وحزماً من صور فوتوغرافية من صندوق أمتعته. وغمر

الرسام الفرح ودهش لوجود ذاك العدد الكبير منها؛ واحتفظ بيركهارت بهدوئه التام وبدا كأنه لايعلق كبير أهمية على الصور الفوتوغرافية، ولكن في سريرته كان يتحرق في انتظار ردة فعله.

هتف فيراغوث مبتهجاً: «يا لها من صور جميلة! أأنت بنفسك التقطتها كلها؟».

قال بركهارت بلا مبالاة: «بعضها، وبعضها الآخر التقطه أصدقاء لي هناك. أردت فقط أن أعطيك فكرة عن طبيعة المكان».

قال هذا وكأنما بشكل عابر وبحركة لامبالية كوّم الصور. وكان فيراغوث أبعد من أن يتكهن بمقدار الجهد المضني الذي بذله لكي يجمّع هذه التشكيلة من الصور. فأولاً أحضر مصوراً إنكليزياً من سنغافورة، ثم شخصاً يابانياً من بانكوك مكث معه أسابيع طويلة، وفي سياق حملات قاموا بها من البحر إلى أعماق الغابة فتشوا وصوروا كل مابدا جميلاً ومثيراً للإهتمام بأي قدر؛ ومن ثم أُظهرت الصور وطُبعت بعناية فائقة. لقد كانت بمثابة الطعم الذي أعده بركهارت، وقد راقب بفرح غامر صديقه وهو يعض عليه ويغرز أسنانه فيه. وقد أراه صوراً لمنازل، وشوارع، وقرى، ومعابد، لكهوف باتو المذهلة الموجودة بالقرب من كوالالامبور، وللحجر الجيري المثلّم، ذي الجمال الصارخ، وجبال الرخام القائمة بالقرب من إبوه، وعندما سأل فيراغوث إن كانت هناك صور للسكان الأصليين، أخرج له صوراً فوتوغرافية أخذت للملاويين، والصينيين، والتاميل، والعرب، والجاويين،

ولعمال موانئ بأجساد رياضية عارية، وصيادي سمك عجائز ذاوين، وصيادي طرائد، وفلاحين، ونسّاج، وتجار، ونساء جميلات مزينات بالذهب، ومجموعات عارية سمراء داكنة من الأطفال، وصيادين يحملون شباطاً، والساكاي[١] بأقراطهم يعزفون على الناي الأنفي، وجاويات راقصات مدججات بحلى فضية رخيصة. وكانت لديه صور فوتوغرافية تبين أشجار نخيل من كل نوع وصنف، وأشجار بيسانغ المورقة العريضة الأوراق، وبقعاً من غابة مطرية تجتازها آلاف مؤلفة من الزواحف، وأيكات معبد مقدس وبرك السلاحف، وثور الماء داخل حقوف الأرز، وفيلة مروضة تعمل وفيلة برية تعبث في الماء وتمد خراطيمها التي تصدر أصواتاً عالية باتجاه السماء.

راح الرسام يتفرج على صورة فوتوغرافية بعد أخرى. بعضها كان ينحيه جانباً بعد أن يلقي عليه نظرة خاطفة، والبعض الآخر كان يضعه جنباً إلى جنب ليجري مقارنة ما بينه، وبعض الأشكال والرؤوس كان يتفحصها بعناية من خلال تجويف يده. وكثيراً ما كان يسأل في أي وقت من النهار تم التقاط الصورة، وكان يقيس الظلال ويزداد باضطراد انغماساً أعمق فأعمق.

ذات مرة تمتم بشرود: «يمكن للمرء أن يرسم كل هذا».

أخيراً صرخ: «كفى!» وأطلق زفرة، «يجب أن تخبرني أكثر بكثير. إن وجودك هنا رائع! إن كل شيء يبدو لي مختلفاً

---

(١) الساكاي: أهل ماليزيا الأصليين.

الآن. هيا بنا، سوف نتمشى ساعة من الزمن. أريد أن أريك شيئاً».

بعد الإشارة، وزوال التعب، خرج يتبعه بيركهارت. في أول الأمر سارا على الدرب. ومرت بهما عربات التبن في الإتجاه المعاكس قاصدة هدفها. وأخذ يستنشق رائحة التبن الدافئة الذكية، وهبطت عليه ذكرى.

سأله وهو يضحك: «أتذكر الصيف الذي تلا نصف العام الدراسي الأول في الأكاديمية، عندما كنا معاً في الريف؟ ورحت أرسم التبن، ولاشيء غير التبن، أتذكر؟ وطوال أسبوعين أرهقت نفسي وأنا أحاول أن ارسم بعض عيدان التبن على مرج جبلي، ولم تخرج كما يجب، لم أستطع أن أحصل على اللون المطلوب، يا لذاك اللون التبني الرمادي! ثم عندما حصلت عليه أخيراً ـ ظل مع ذلك مايزال ليس هو بالضبط، لكني على الأقل عرفت أنه كان عليّ أن أمزج اللونين الأحمر والأخضر ـ لقد كنت من فرط السعادة حتى أني لم أر حولي غير التبن. أوه، كم كان شيئاً رائعاً، تلك المحاولة الأولى والبحث والعثور على البغية.

قال أوتو: «يبدو لي أن ثمة دائماً المزيد لنتعلمه».

«طبعاً، لكن ما يعذبني الآن لا علاقة له بالتقنية. أتدري، ثمة خلال السنوات القليلة الأخيرة شيء يتراءى لي مراراً وتكراراً يعيد إليّ طفولتي، في تلك الأيام كان كل شيء يبدو مختلفاً؛ وآمل أن أضع ذات يوم شيئاً منها في رسمي. إنني مرة كل حين أعيد أسر إحساس هنيهة أو اثنتين، وإذا بكل شيء يكتسي فجأة من جديد ذاك الوهج الخاص ـ لكن ذلك غير كاف. إن لدينا عدداً لابأس به من الرسامين الجيدين،

رجال حساسون، يتمتعون بحسن التمييز، يرسمون العالم كما يراه جنتلمن عجوز، ذكي، حسن التمييز، غير مدّع. ولكن ليس لدينا أحد ممّن يرسمونه كما يراه صبي غض، مقدام، ملوكي مهيب، وأغلب أولئك الذين يحاولون هم حرفيون بائسون».

اقتلع، وقد استغرقه التفكير، وردة غجرية زرقاء مائلة إلى الحُمرة من حافة الحقل وحدق إليها.

سأله وكأنه قد استفاق فجأة، وكانت ترتسم على وجه صديقه نظرة حيّية «هل أضجرك؟».

لم يقل أوتو أي شيء لكنه ابتسم.

تابع الرسام: «أتعلم، إن إحدى اللوحات التي لا أزال أرغب في رسمها هي باقة من الأزهار البرية. لقد كان في استطاعة أمي، كما لا بد أنك تعرف، أن تصنع باقات أزهار لم أشاهد مثيلاً لها منذ ذلك الحين، لقد كانت عبقرية في ذلك. كانت أشبه بطفلة؛ دائماً تقريباً تغني، وخطوتها خفيفة جداً وتعتمر قبعة من القش لونها مائل إلى البني، هكذا أراها دائماً في مناماتي. أود ذات يوم أن أرسم باقة من الأزهار البرية، من النوع الذي كانت تحبه: الوردة الغجرية والألفية[1]، وقليل من اللبلاب القرنفلي، مع بضعة نصال من العشب النضر وعيدان من الشوفان الأخضر. لقد أحضرتُ إلى المنزل مئات من مثل تلك الباقات لكنها لم تكن بالضبط كالمطلوب، كان يجب أن تفوح بالعبير، وكأنها هي التي شكّلتها. هي لم يتكن تحب مثلاً الألفية البيضاء، ولم تكن التشكيلة النادرة الرائعة تكتمل إلا بإضافة نتفة من البنفسج؛ كانت تقضي نصف فترة

(١) ذات الألف ورقة (زهرة).

ما بعد الظهر وهي تنتقي من بين ألف نصل من أوراق العشب قبل أن تختار واحداً... أوه، لا فائدة، أنت لاتفهم».

أومأ بركهارت مؤكداً، «بل أفهم».

«نعم، إنني أحياناً أفكر في تلك الباقة على مدى ساعات طويلة. وأعرف بالضبط كيف يجب أن تكون اللوحة. إنها ليست من نوع ما تحبه من المقتطف الشهير من الطبيعة كما يراها المراقب الجيد ويبسّطها رسام ماهر ونشيط، وليست حتى حلوة وتثير العاطفة، كما قد يرسمها رسام المشاهد المحلية. إن هذه الصورة يجب أن تكون ساذجة بكل معنى الكلمة، كما تُرى من خلال عينيّ طفل موهوب، غير مأسلبة[١] وكلها بساطة. أما عندما أرسم في محترفي سمكة وضباب الصباح فالأمر مناقض تماماً ـ لكن على الرسام الحق أن يتقن الطريقتين معاً (...) أوه، كم لدي من أشياء كثيرة أرسمها، كثيرة جداً!».

انعطف إلى درب ضيق يمر عبر المروج، ويرتفع برفق إلى هضبة صغيرة مدورة.

قال بلهفة، وهو يحدق أمامه كصياد طرائد: «والآن افتح عينيك جيداً، سوف تراه من هناك فوق! هذا ما أنوي أن أرسمه هذا الخريف».

وصلا إلى القمة. على الجهة البعيدة كانت هناك أيكة يتخللها ضوء مسائي منحرف استوقفت العين التي جعلها مرآة المرج المنفتح الواضح للعيان كسلى، وتباطأت في العثور على طريقها خلال الأشجار. وكان هناك درب يؤدي

(١) أي لاتندرج تحت أي أسلوب من أساليب الرسم المعروفة.

إلى مجموعة من أشجار الزان السامقة تحتها مقعد حجري نمت عليه الطحالب. ولدى اتباع الدرب، تعثر العين على فسحة؛ وبعد اجتياز المقعد، تشق طريقها خلال ممر معتم بين قمم الأشجار لتصل إلى المدى الطلق الوضّاء، حيث واد تحدده أشجار صفصاف وشجيرات قصيرة، يتمعج ويتلألأ بلونه الأخضر المشوب بالزرقة، وأبعد منه، تترامى سلسلة من التلال إلى مالانهاية.

أشار فيراغوث نحو الأسفل: «سوف أرسم ذلك حالما يتلون شجر الزان. سوف أُجلس بيير على المقعد في الظل بحيث أجعله يرسل بصره إلى أسفل نحو الوادي».

لم يفه بركهارت بأي كلمة. لقد كان قلبه مترعاً بالحب وهو ينصت إلى صديقه. وقال بركهارت في نفسه وهو يبتسم سراً، كم بذل من جهد ليكذب عليّ. يالطريقته في التحدث عن خططه وعمله! إنه لم يفعل ذلك من قبل. بدا كأنه يعددُ الأشياء التي مازال يستمتع بها، وما زالت تصالحه مع الحياة. لقد كان صديقه يعرفه ولم يقم بأية محاولة لإيجاد تفاهم بينهما. كان يعرف أن يوهان سرعان ما سيكسر صمتاً أضحى لايحتمل ويزيل عن كاهله كل ما تراكم على مرّ السنين، لذا ظل سائراً إلى جواره، ينتظر بسكون متعمد، بيد أنه كان حزيناً من الداخل، ومندهشاً لأن رجلاً متفوقاً مثله قد تحول إلى طفل في سوء حظه، وكأنه يفتش عن طريقه وهو معصوب العينين وموثوق اليدين بين العليق.

عندما سألا لدى عودتهما إلى روسهالده عن بيير، قيل لهما إنه ذهب إلى البلدة مع فراو فيراغوث لاستقبال الهر ألبرت.

4

أخذ ألبرت فيراغوث يذرع أرض غرفة موسيقى أمه بغضب. كان يبدو للوهلة الأولى مشابهاً لوالده، لهما العينين نفسها، لكنه في الواقع كان أقرب شبهاً بكثير بأمه، التي كانت واقفة تتكئ إلى البيانو، تتابعه بعينين حانيتين، منتبهتين. وعندما اقترب منها أمسكت به من كتفيه وأدارت وجهه نحوها. كانت خصلة من الشعر الأشقر تتدلى فوق جبينه العريض الشاحب، ولمعت عيناه بتوتر صبياني، وكان فمه الممتلئ الجميل يتلوى من الغضب.

صرخ، وهو يتحرر من قبضتها: «كلا، يا أمي، أنت تعلمين أنه لايمكن أن أذهب لأقابله. سيكون ذلك مهزلة. هو يعلم أني أكرهه، أنت حرة في رأيك، وهو أيضاً يكرهني».

قالت بقسوة ملطفة: «كراهية! لاتستخدم مثل هذه الكلمات، إنها تفسد كل شيء. إنه والدك وفي وقت من الأوقات كان يحبك حباً جماً. أنا أمنعك من أن تتكلم هكذا».

توقف ألبرت جامداً في مكانه وراح يحدجها بنظرة غضب.

«تستطيعين دون شك أن تمنعيني من أن أستخدم الكلام، ولكن ماذا يغير هذا؟ أتتوقعين مني أن أكون ممتناً له؟ لقد دمّر حياتك وبيتي، حوّل عزبتنا روسهالده الجميلة، السعيدة

الرائعة إلى مكان يستوطنه البؤس والكراهية. لقد نشأت هنا، يا أمي، وأحياناً تراودني ليلة بعد ليلة أحلام عن الغرف القديمة والأروقة، عن الحديقة والاسطبل وبرج الحمام. ليس لدي بيت آخر أحبه وأحلم به وأحن إليه. والآن أنا مضطر إلى أن أعيش في أماكن غريبة ولا أستطيع حتى أن أحضر صديقاً إلى البيت في وقت العطلة، لأني لا أريده أن يتعرف على الحياة التي نعيشها! وكلما قابلت شخصاً وعرف باسمي يبدأ بالترنم بتقريظ والدي الشهير. أوه، يا أمي، كنت أودّ لو لم يكن لدينا أب أصلاً ولا روسهالده، وددت لو كنا أناساً فقراء وكنتِ مضطرة إلى أن تخيطي أو أن تعطي دروساً، وكنت سأساعدك في كسب لقمة العيش».

أمسكت أمه به وأجبرته على الجلوس على كرسي؛ وجلست هي على ركبتيه وأخذت تمسّد على شعره وتعيده إلى مكانه.

قالت بصوت عميق هادئ، كان رنينه يمثل بالنسبة إليه البيت والموقد: «هاك، هاك. ها أنت قد أفشيت لي كل شيء. أحياناً من المفيد أن نزيح الهموم عن صدرنا. جميل أن نعي ما علينا أن نتحمله. ولكن يجب أن لاننفض عنا بعنف الأشياء التي تؤذينا، يا بني لقد أصبحت تعادلني في طول القامة الآن، وقريباً ستغدو رجلاً، وأنا سعيدة بذلك. أنت ولدي وأريدك أن تظل ابني، ولكن في الحقيقة، أنا وحدي معظم الوقت وتنتابني هموم شتى. إني بحاجة إلى صديق يكون رجلاً حقاً، ويجب أن يكون أنت. يجب أن نعزف معاًعلى البيانو وأن تتمشى معي في الحديقة وتعتني ببيير، وسوف نمضي عطلة رائعة معاً. ولكن ممنوع عليك أن تدخن أو أن تثير ضوضاءً أو أن تكون

سبباً في تشديد الوطأة عليّ، لأن ذلك سوف يجعلني أشعر أنك ما زلت شبه طفل وأن عليّ أن أنتظر وقتاً طويلاً الصديق الذكي الذي أنا في أمسّ الحاجة إليه».

«نعم، يا أماه، طبعاً. ولكن إذا لم تعجبني الأوضاع، هل يجب دائماً أن أحتفظ بذلك لنفسي؟».

«إنها الطريقة المثلى، يا ألبرت. وهذا ليس سهلاً، ولايتوقع الإنسان هذا الموقف من الأطفال. لكنها الطريقة المثلى ـ مارأيك أن نعزف معاً مقطوعة ما؟».

«نعم، فلنعزف، بيتهوفن، السيمفونية الثانية ـ مارأيك؟».

ما إن بدءا بالعزف حتى فتح الباب بهدوء وانسل بيير إلى الداخل، وجلس على مقعد بلا ظهر، وأخذ ينصت. نظر متفكراً إلى أخيه، إلى قفا عنقه، وياقة قميصه الرياضي الحريري، وإلى حركة شعره على إيقاع الموسيقى، وإلى يديه. وبما أنه لم يكن يرى عينيه، فقد لاحظ الشبه الشديد لألبرت بأمه.

سأله ألبرت أثناء فترة توقف: «أتعجبك؟». أومأ بيير إيجاباً، لكنه بعد هنيهة غادر الغرفة بهدوء. لقد لاحظ في سؤال ألبرت له أثراً من نبرة الصوت التي كان يعرف من خبرته أن الكبار يتلبسونها عند مخاطبتهم الأطفال؛ ولم يتحمل ما تتسم به من تودُّد زائف وعجرفة مضجرة. لقد كان سعيداً بمجيء أخيه الأكبر، وقد كان يتطلع بلهفة إلى زيارته ورحب به بفرح في المحطة. أما نبرة الصوت تلك، كلا، لن يتحملها.

في تلك الأثناء، كان فيراغوث وبيركهارت ينتظران

ألبرت في المحترف بيركهارت بفضول ظاهر، والرسام بارتباك عصبي. وكان مرحه الوجيز المهذار قد فارقه فجأة عندما علم أن ألبرت قد وصل.

سأله أوتو: «هل وصوله غير متوقع؟».

«لا، لا أعتقد ذلك. كنت أعلم أنه سيصل في أي يوم».

تناول فيراغوث بعض الصور الفوتوغرافية القديمة من صندوق النثريات. وانتقى منها صورة صبي صغير ووضعها جنباً إلى جنب مع صورة بيير. «هذا ألبرت عندما كان بالضبط في مثل عمر بيير الآن. أتذكره؟».

«أوه، أعرفه حق المعرفة. إن الصورة تمثله تماماً. إنه يعطي شبهاً كبيراً لزوجتك.أكثر من بيير؟».

«نعم، أكثر بكثير. إن بيير لايشبهك ولايشبه أمه. آه، ها قد أتى. أم هل هو ألبرت؟ لا، لايمكن».

شمع وقع خطى رشيقة خارج الباب، عبرت بلاط الممشى ومكشطة القدمين الحديدية، ولمست يد مقبض الباب وبعد برهة تردُّد أدارته ودخل بيير، وهو يرمي نظرة ودية مستعلمة ليرى إن كان موضع ترحيب.

سأل والده: «أين ألبرت؟».

«مع الماما. يعزفان على البيانو».

«فهمت. هو يعزف على البيانو».

«أأنت غاضب يا بابا؟».

«لا، يا بيير. أنا سعيد لأنك أتيت. ما الجديد؟».

رأى الصبي الصور الفوتوغرافية فتناولها. «أوه، هذا أنا. ومن هذا؟ أهو ألبرت؟»

«نعم، هو ألبرت. هكذا كان يبدو عندما كان بالضبط في مثل سنك، وكان ذلك قبل أن تولد. والآن أصبح كبيراً وروبرت يناديه بـ «هر ألبرت»».

«أتود أن تكبر؟»

«نعم، أود ذلك، إن في إمكان الكبار أن يقتنوا الجياد وأن يسافروا. وأحب أن أفعل ذلك. ولا أحد عندئذ يناديك «يا بني» ولايقرص وجنتيك. لكني لا أريد حقاً أن اكبر. إن الكبار يمكن أن يكونوا بغيضين. حتى ألبرت قد أصبح مختلفا تماماً الآن. وعندما يتقدم الكبار في العمر ويشيخون، يموتون في النهاية. وأنا أفضل أن أبقى كما أنا، وأحياناً أود لو أتمكن من الطيران، وأحلق عالياً فوق قمم الأشجار، وأتغلغل بين الغمام. عندئذ سوف أضحك على الجميع».

«وعليّ أيضاً يا بيير؟»».

«أحياناً، بابا. إن الكبار مضحكون أحياناً. الماما ليست كثيراً. أحياناً تتمدد الماما في الحديقة على كرسي طويل، ولاتفعل أي شيء، تنظر فقط إلى العشب؛ وذراعاها متدليان وهي ساكنة تماماً وحزينة قليلاً. جميل أن لايكون لدى الإنسان أي شيء يفعله طوال الوقت»».

«ألا تصبو إلى أن تغدو أي شيء؟ مهندساً معمارياً أو بستانياً أو ربما رساماً؟»».

«لا، لا أريد. عندنا هنا بستاني، وأنا عندي بيت. أود أن أقوم بأمور مختلفة تماماً. أود أن افهم ما تقوله طيور أبو الحناء بعضها للبعض الآخر. وأود أن أرى كيف تعمل الأشجار على شرب الماء بواسطة جذورها وتصبح كبيرة

جداً. لا أعتقد أن أحداً يعرف هذا حقاً. إن أستاذ المدرسة يعرف الكثير، لكنه لايعرف إلا الأشياء المملة». كان قد جلس في حجر أوتو بركهارت وأخذ يعبث بإبزيم حزامه. قال له بركهارت بنبرة صوت ودية «هناك أشياء كثيرة لانستطيع أن نعرفها. وهناك أشياء كثيرة نستطيع فقط أن نراها، وهي جميلة ويجب أن نكتفي بذلك. وعندما ستأتي لزيارتي في الهند ذات يوم سوف تظل على متن سفينة كبيرة لأيام وأيام، وسوف تقفز سمكات صغيرة كثيرة وكثيرة جداً خارجة من الماء أمام السفينة، بأجنحتها الشفافة وفي إمكانها أيضاً أن تطير. وأحياناً تكون هناك طيور قطعت مسافات طويلة طويلة قادمة من جزر غريبة؛ وتكون مفرطة التعب، فتجلس على سطح السفينة وتدهش لمرأى كل ذاك العدد الكبير من الناس الغرباء يتجولون في أرجاء المحيط. هي أيضاً تحب أن تفهمنا، وأن تسألنا من اين أتينا وما هي أسماؤنا، لكنها لاتستطيع، لذا فنحن نكتفي بأن نتبادل النظرات فيما بيننا ونهز رؤوسنا، وبعد أن تنال الطيور قسطاً وافراً من الراحة، تهز نفسها وتنطلق محلقة عبر المحيط».

«ألا يعرف أحد ماهي أسماء تلك الطيور؟».

«أوه نعم. لكننا لانعرف إلا الأسماء التي منحها الناس لها. نحن لانعرف بماذا ينادي كل منها الآخر».

«إن لدى العم بركهارت قصصاً رائعة يا بابا. أتمنى أن يكون لدي أيضاً صديق. إن ألبرت كبير جداً. وأغلب الناس لايفهمون حقاً ماذا أتمنى عندما أقول شيئاً، لكن العم بركهارت يفهم فوراً».

جاءت خادمة لكي تأخذ الصبي. وسرعان ما حان وقت

تناول طعام العشاء وتوجه الرجلان إلى بيت العزبه. كان فيراغوث صامتاً ومنحرف المزاج. وفي غرفة الطعام تقدم ابنه منه وتصافحا.

«مساء الخير، بابا».

«مساء الخير، يا ألبرت. هل كانت رحلتك ممتعة؟».

«نعم، شكراً لك. مساء الخير، هر بركهارت».

كان الشاب اليافع رائقاً جداً ولائق السلوك. وقد رافق والدته حتى المائدة. وقدم طعام العشاء. وانحصرت المحادثة كلها تقريباً بين بركهارت وسيدة الدار. ودار حديثهما عن الموسيقا.

قال بركهارت، ملتفتاً إلى ألبرت: «هل لي بسؤالك عن نوع الموسيقا التي تحبها على وجه الخصوص؟ وإن كان لابد لي أن أعترف بأني انقطعت عن المتابعة، والمؤلفون الموسيقيون بالنسبة إليّ ليسوا أكثر من أسماء».

رفع الفتى بصره وأجاب بأدب: «أنا نفسي لا أعرف عن أغلب الموسيقيين المحدثين إلا ما أسمعه. إنني لا أنتمي إلى أية مدرسة، وأحب أي نوع من الموسيقا إذا كانت جيدة. خاصة باخ، وغلوك، وبيتهوفن».

«أوه، الكلاسيكيين. على أيامنا الوحيد من هؤلاء الذي كان معروفاً جيداً هو بيتهوفن. وبالكاد كنا نسمع بغلوك. وفي الواقع، لقد كنا جميعاً فاغناريين[1] متحمسين. أتذكر يا

---

(١) فاغناريين: نسبة إلى الموسيقي الألماني ريتشارد فاغنر (١٨١٣ - ١٨٨٣)

يوهان عندما استمعنا إلى مقطوعة «تريستان» للمرة الأولى؟ لقد انسجمنا كل الانسجام!».

رسم فيراغوث ابتسامة كئيبة.

هتف بشيء من الخشونة، «هراء! إن فاغنر انتهى. أليس كذلك يا ألبرت؟».

«أوه، لا أبداً. إن أوبراته تقدم في كل مكان. ولكن لا رأي لي في هذا الموضوع. ألا يثير فاغنر اهتمامك؟».

«إنني لا أعرفه معرفة جيدة، هر بركهارت. إني نادراً ما أحضر أوبرا. إني لا أهتم إلا بالموسيقى الصرف، وليس بالأوبرا».

«حسن، وماذا عن افتتاحية مايستر سينغر، لا تقل إنك لاتعرف هذه. أهي أيضاً لاتهمك؟»

عضّ ألبرت على شفتيه وفكر ملياً برهة قبل أن يجيب، «حقاً لا رأي عندي. إنها ـ كيف أعبر لك ـ موسيقا رومانسية، وهي ببساطة لاتثير اهتمامي».

عبس فيراغوث. ثم سأل على سبيل الترويح: «هل لك ببعض النبيذ؟».

«نعم، من فضلك».

«وأنت، يا ألبرت؟ أترغب بكأس من النبيذ الأحمر؟».

«شكراً لك، بابا، أفضل أن لا أشرب».

«أأصبحت مقلعاً عن المسكرات؟».

«لا، أبداً. لكن النبيذ لايناسبني؛ أفضل أن لا أشرب».

«حسن. لكنك ستشرب معي، يا أوتو. في صحتك!».

ازدرد نصف الكأس بجرعة واحدة.

ظل ألبرت يقوم بدور الشاب المهذب الذي يحمل آراءً محددة جداً لكنه يحتفظ بها لنفسه احتشاماً، تاركاً الحديث لمن يكبره في السن، ليس توقاً إلى التعلّم وإنما لأنه يريد أن يُترك وشأنه. لم يكن الدور يليق به، وسرعان ما أخذ هو نفسه يشعر بالإنزعاج. وكالعادة، تجاهل والده قدر استطاعته، متمنياً أن لايتيح له أية فرصة للجدال.

كان بركهارت صامتاً، منخرطاً في المراقبة، بحيث أنه عندما فترت حرارة الحديث حتى الجمود، لم يكن هناك من يحييه. أسرعوا في تناول الطعام،وتبادلوا تناقل الأطباق بأدب جم، وعبثوا بشكل أخرق بملاعق العقبة، وانتظروا، مع إحساس بالوحشة مثير للشفقة، اللحظة التي يتمكنون فيها من مغادرة المائدة. وعندئذ فقط أدرك أوتو بركهارت بوعي تام الوحشة والفتور التام الذي هبط على زواج صديقه وحياته. ووجه إليه نظره فألفاه يحدق بحزن واهن إلى طعامه، الذي بالكاد لمسه، وعندما تقابلت عيونهما، باغت نظرة توسُّلٍ، وإحساسٍ بالخجل لأنه فضح حالته.

كانت نظرة أسى؛ وكأن الصمت المفتقر إلى الحب، والفتور المرتبك، والجمود الخالي من روح الدعابة الذي ساد جو المائدة يعلن بصوت عال إحساس فيراغوث بالخجل. وفي تلك اللحظة شعر أوتو أن كل يوم إضافي يقضيه في روسهالده لن يعمل إلا على إطالة دوره المذلّ كمراقب وعلى تعذيب صديقه، الذي بالكاد كان قادراً، بمكافحة إحساسه بالإمتعاض، على المحافظة على الشكليات، لكنه بات عاجزاً

عن حشد قواه وعزيمته لإخفاء بؤسه عن عيون النظارة. لقد حان وقت مغادرته.

ما إن نهضت الفراو فيراغوث واقفة حتى دفع زوجها كرسيه إلى الخلف. وقال: «إنني مرهق من فرط التعب ويجب أن أستأذن. لا، لا، إبقي أنتِ».

خرج، ونسي أن يغلق الباب، وسمع أوتو خطواته الثقيلة البطيئة تغيب في الرواق ومنه إلى الدرج الصارّ.

أغلق بركهارت الباب وتبع سيدة الدار إلى غرفة الجلوس، حيث كان نسيم المساء يتغلغل خلال موسيقا آلة البيانو التي كانت ما تزال مفتوحة.

قال بارتباك: «كنت أنوي أن أطلب منك أن تعزفي لنا مقطوعة، ولكن أعتقد أن زوجك ليس على مايرام، فقد ظل يعمل تحت أشعة الشمس نصف فترة ما بعد الظهر. إن لم يكن لديك مانع، أعتقد أن سألازمه بعض الوقت».

هزت فراو فيراغوث رأسها بوقار موافقة ولم تقم بأية محاولة لاستبقائه. فاستأذن ورافقه ألبرت حتى الدرج.

5

عندما خطا أوتو بركهارت خارج مدخل القاعة، حيث كانت الثريا الكبيرة قد أضيئت لتوها، واستأذن من ألبرت، كان الليل قد هبط. وتحت أشجار الكستناء توقف، ليستنشق بنهم هواء المساء الذي تلبس برودة رقيقة وتضمَّخ بعبق أوراق النبات، وليمسح عن جبينه حبات كبيرة من العرق. إذا كان في مقدوره أن يمد يد العون إلى صديقه، فإن ذاك كان الوقت المناسب لذلك.

لم يكن في مسكن الرسام أي ضوء؛ لم يعثر على فيراغوث في المحترف ولا في أي من الغرف الأخرى. ففتح الباب المؤدي إلى البحيرة ويخطى قصيرة بطيئة طاف في المنزل، بحثاً عنه. وأخيراً رآه جالساً في الكرسي المصنوع من الأماليد المجدولة الذي كان هو نفسه يشغله بعد ظهر ذاك النهار بينما كان فيراغوث يرسمه. وكان الرسام رابضاً ومائلاً إلى الأمام، ووجهه بين يديه، ومن السكون بحيث بدا وكأنه نائم.

نادى بركهارت بنعومة: «يوهان!» وحط يده على الرأس المحني.

لم يجب فيراغوث، الغارق في إرهاقه ومعاناته. فوقف بركهارت إلى جانبه بصمت، ينتظر ويمسِّد على شعره الخشن

القصير. وحدها الريح الهابة على الأشجار كسرت سكون المساء. مرت دقيقة. ثم، وعبر الغسق وصلت موجة صوتية هادرة قادمة من جهة دار العزبة، نغمات متآلفة جهورية، بارعة الأداء ومن بعدها أخرى - إنها الفواصل الموسيقية الأولى من سوناته على البيانو.

رفع الرسام رأسه، وصافح صديقه برقة، ثم نهض واقفاً. ومن عينين متعبتين، ناضبتين، أرسل نظرة خرساء إلى بركهارت، وحاول أن يرسم ابتسامة، لكنه تخلى عن الأمر؛ وتراخت قسمات وجهه الجامدة.

قال، وهو يومئ، وكأنما يحتمي من تيار الموسيقا «دعنا نلج إلى الداخل».

سار في المقدمة. وعند باب المحترف توقف. أعتقد أن مكوثك بيننا لن يطول؟».

قال بركهارت في نفسه، ما أشد حساسيته لكل شيء! ثم أجاب بصوت مكبوح: «وماهمّ زيادة يوم أو نقصانه؟ أعتقد أني سأغادر يوم بعد غد».

تلمّس فيراغوث بحثاً عن مفتاح النور. وسُمعت تكة معدنية واهية ومن ثم امتلأ المحترف بنور ساطع.

«في هذه الحالة، فلنشرب معاً زجاجة من النبيذ الجيد».

دق الجرس استدعاءً لروبرت وأعطاه أوامره. كانت صورة بركهارت، المنتهية تقريباً، موضوعة في وسط المحترف. فتوقفا ينظران إليها بينما كان روبرت ينقل الطاولة وكرسيين، ويحضر النبيذ والثلج، ويعدّ السيجار والمنافض.

«يكفي هذا، يا روبرت. أنت حر هذه الليلة. لاتوقظني في الغد دعنا الآن».

جلسا وتقارعا بالكؤوس. تململ الرسام بحركات تنم عن القلق، ونهض واقفاً، ثم أطفأ نصف الأضواء. وعاد وارتمى بقوة على كرسيه.

بادر قائلاً: «الصورة لم تنته تماماً. خذ سيجاراً. كان يمكن أن تصبح جيدة جداً، ولكن لايهم. سوف نلتقي ثانية».

انتقى سيجاراً، قطعه بتأن، وأخذ يديره بين أصابع متوترة، ثم حطه ثانية، «أعتقد أنك وجدت أن الأمور لاتسير على أحسن مايرام هذه المرة، أليس كذلك يا أوتو؟ أنا آسف».

تغيرت طبقة صوته، وربض مائلاً إلى الأمام، ثم مدّ يديه نحو بركهارت، وقبض بهما بقوة على يديه.

أنَّ ضَجِراً «ها أنت الآن تعرف كل شيء»، وسقطت دمعة أو اثنتان على يد أوتو. لكن فيراغوث لم يكن راغباً في أن يطلق العنان لنفسه فاستقام في جلسته وأجبر نفسه على التكلم بهدوء، وقال بارتباك: «سامحني. لنشرب مزيداً من النبيذ. أراك لاتدخن؟».

أخذ بركهارت سيجاراً.

«مسكين يا صاحبي!».

شربا ودخنا يلفهما صمت ملطِّف، وشاهدا الضوء يتلألأ في الكؤوس الكريستالية ويتوهج بدفء أكثر في النبيذ الذهبي اللون، وشاهدا الدخان الأزرق يطفو متردداً في جو الغرفة الفسيحة ويتلوى ليغدو خيوطاً متقلبة. وكانا بين حين وآخر يتبادلان نظرات صريحة، مرسلة على سجيتها لاتحتاج

إلى إردافها بكلمات. وكأن كل شيء قد قيل لتوه.

أزّت فراشة قاطعة المحترف وضربت الجدران ثلاث مرات أو أربع محدثة صوتاً مكتوماً. ثم استقرت كالمخدرة، بشكلها المثلث المخملي الرمادي اللون، على السقف.

أخيراً سأله بركهارت، متردداً: «هل تأتي معي إلى الهند في الخريف؟».

خيمت فترة أخرى من الصمت. بدأت الفراشة تتحرك فيما حولها. أخذت تزحف ببطء، صغيرة ورمادية، إلى الأمام، وكأنها نسيت كيف تطير.

قال فيراغوث: «ربما، ربما. يجب أن نناقش الأمر».

«إسمع، يا يوهان. أنا لا أريد أن أعذبك. ولكن يجب أن تقول لي شيئاً محدداً. إنني لم أتوقع أن تعود الأمور بينك وبين زوجتك على أحسن ما يرام، ولكن...».

«إنها لم تكن قط على مايرام».

«لا. ولكن، مع ذلك، لقد ذهلت إذ ألفيتها بهذا السوء. لايمكن أن تستمر على هذا المنوال. إنها تعمل على تدميرك».

ضحك فيراغوث بصوت أجش. «لاشيء يعمل على تدميري، يا صديقي في شهر أيلول سوف أعرض عشر لوحات أو إحدى عشرة لوحة جديدة في فرانكفورت».

«عظيم. ولكن إلى متى يمكن أن يستمر هذا الحال؟ إنه عبث... قل لي، يا يوهان، لِمَ لمْ تتفقا على الطلاق؟»

«لسبب بسيط جداً... سأحكي لك كل ملابساته. ويجب أن تسمع القصة كلها بالترتيب».

رشف رشفة من النبيذ وظل مائلاً إلى الأمام وهو ،يتكلم، بينما ابتعد أوتو عن الطاولة.

«أنت تعلم أن ثمة مشاكل مع زوجتي منذ البداية. وقد ظلت الأمور محتملة بضع سنوات، لا هي بالجيدة، ولا بالسيئة. وفي ذلك الوقت ربما كان من الممكن تجنب أشياء كثيرة جداً. ولكنني أصبت بخيبة أمل ولم أكن حاذقاً في إخفاء ذلك، ورحت ألحّ في طلب الشيء الذي كانت أديل عاجزة بالضبط عن إعطائه. فهي لم تكن تتصف بأي قدر من الحيوية؛ كانت رصينة وجدية، وكان من الممكن أن ألاحظ ذلك في وقت مبكر. وعندما كانت تقع مشكلة، لم تكن قادرة قط على أن تشيح بوجهها عنها أو أن تستخف بها. وكان ردّها الوحيد على مطالبي وتقلبات مزاجي، على توقي المشبوب وأخيراً على خيبة أملي، صمتاً ينطوي على معاناة طويلة، وصبراً بطولياً، هادئاً، مؤثراً، والذي طالما أثرّ بي لكنه لم يكن ذا عون سواء ألها أم لي. وعندما كنت أغدو نزقاً ونيِّقاً كانت تكتفي بالمعاناة بصمت، وبعد ذلك بقليل عندما حاولت أن أجد تسوية للأمور وأتوصل إلى تفاهم، عندما توسلت إليها كي تسامحني، أو عندما حاولت، في فورة من جذل، أن أرفعها عالياً، كان نصيبي الفشل؛ لقد ظلت تلزم الصمت وانغلقت على نفسها أكثر من ذي قبل داخل إخلاصها الصارم. وحين كنت ألازمها، تصبح خائفة، ومستسلمة، وصامتة، وتتلقى نوبات غضبي أو مرحي العارمة بالاتزان نفسه، وعندما أبتعد عنها، كانت تجلس وحدها تعزف على البيانو، تفكر في حياتها حين كانت فتاة صغيرة. وكانت النتيجة أني صرت أضع اللوم على نفسي أكثر فأكثر، وفي نهاية المطاف لم يبق لدي ما أعطيه أو أنقله إليها. أصبحت

أكثر انكباباً فأكثر على العمل وتعلمت تدريجياً أن أجعل من عملي ملاذي».

كان يبذل مجهوداً واضحاً للمحافظة على هدوئه. لم تكن لديه أية رغبة في توجيه أي اتهام، كانت رغبته كلها منصبة على سرد حكايته، ولكن كان يمكن تبيُّن اتهام خلف الكلمات، أو على الأقل تفجّع على حطام حياته، على إحساس بالخيبة في آماله الغضة، وعلى شبه الوجود الناضب من الفرح، وكان في حالة صراع مع طبيعته الأعمق، المتّهم أمامها.

«حتى عندئذ، كنت أفكر في الطلاق بين حين وآخر. لكن الأمر ليس بهذه البساطة. لقد كنت معتاداً على العمل بسكينة وهدوء، ولم أقوَ على مواجهة فكرة اللجوء إلى المحاكم والمحامين، أو على تعطيل روتيني اليومي. ولو أن علاقة حب جديدة ظهرت عندئذ، لكان اتخاذ القرار جاء بسهولة. لكن طبيعتي كانت اقل مرونة مما حسبت. لقد وقعت في حب فتيات غضات جميلات، ولكن ما شعرتُ به كان نوعاً من الحسد الكئيب؛ ولم يتطور الأمر إلى أعمق من ذلك. وتوصلت إلى إدراك أني لن أعرف مطلقاً أي حالة حب يمكن أن أنغمس فيها كما كنت أفعل مع الرسم. لقد انصبت حاجتي على إنفاق طاقاتي ونسيان نفسي، وكل حماستي، على رسمي، والحق أقول لك، إنني خلال كل تلك السنين لم أسمح لأي مخلوق بشري جديد أن يلج حياتي، امرأة كان أم صديقاً. والحق، أن أية علاقة صداقة كان يجب أن تبدأ بالتسليم بخزيي».

قال بركهارت بلطف، في نبرة تأنيب «خزي؟!».

«نعم، خزي! هكذا كان شعوري وهو لم يتغير. فمن الخزي أن أكون تعيساً. من الخزي أن أعجز عن أن أكشف

لكل إنسان حياته الخاصة، أن أضطر إلى أن أخفي شيئاً. ولكن كفى! دعني أكمل».

حدّق مكفهراً إلى كأس نبيذه، ثم رمى بعيداً سيجاره المحترق، وتابع.

«في تلك الأثناء، كان ألبرت قد تجاوز مرحلة الطفولة المبكرة وكنا نحن الإثنان نحبه حباً جماً وكان قلقنا عليه يؤالف ما بيننا، ولم يحدث إلا بعد أن بلغ السابعة أو الثامنة من عمره أن بدأت أشعر بالغيرة وأدافع عنه ـ تماماً كما أدافع الآن عن بيير ضدها. وفجأة أدركت أن الصبي الصغير أصبح قرة عيني التي لاغنى لي عنها، ومن ثم وعلى مدى عدة سنوات رحت أراقب يعصرني الألم المبرح كيف أخذت عاطفته نحوي تبرد شيئاً فشيئاً وأخذ يلتصق بأمه أكثر فأكثر.

«ثم وقع ضحية مرض خطير، وغطى قلقنا على الولد كل ما عداه فترة من الزمن؛ وعشنا في تآلف عظيم لم يسبق له مثيل. وبدأ حملها ببيير في تلك الفترة».

«منذ ولادة بيير الصغير إلى العالم، وأنا أمنحه كل مالدي من حب. وتركت أديل تبتعد عني من جديد؛ وبعد تماثل ألبرت إلى الشفاء من مرضه، لم أفعل أي شيء من شأنه أن يمنعه من الاقتراب من أمه أكثر فأكثر. وأصبح هو المؤتمن على أسرارها في صراعها معي وسرعان ما أضحى عدواً لي؛ وفي النهاية كان لابد لي من أن أبعده عن المنزل. وتخليت عن كل شيء، أصبحت عالة مدقعاً، وكففت عن الانتقاد وعن إعطاء الأوامر في المنزل، وأصبحت ضيفاً متسامحاً في بيتي أنا، لكنني لم أهتم. كل ما أردت أن أحتفظ به لنفسي هو صغيري بيير. ولما غدت الحياة مع ألبرت ومع الحالة العامة

للأمور لاتحتمل، عرضت الطلاق على أديل.

«أردت أن أحتفظ ببيير معي. وكان في وسعها أن تأخذ كل شيء آخر: في وسعها أن تعيش مع ألبرت، وأن تحتفظ بروسهالده وبنصف دخلي - وأكثر، لم يكن يهمني. لكنها رفضت. لقد كانت راغبة في الطلاق، ولم تكن تطلب إلا أقل قدر من الدعم المادي، لكنها رفضت أن تفارق بيير. وكان ذاك آخر شجار نشب بيننا. وحاولت أن أنقذ آخر ذرة متبقية لي من السعادة؛ قطعتُ لها الوعود وتوسلت إليها، ذللت نفسي، وهدَّدت وبكيت وأخيراً فقدت أعصابي؛ كل ذلك ذهب عبثاً. بل حتى إنها وافقت على رحيل ألبرت. وفجاة بدا واضحاً أن تلك المرأة الهادئة، الصبور، لاتنوي أن تقدم أي تنازل؛ لقد كانت على وعي تام بقوتها وقد كانت أقوى مني. وفي ذلك الوقت بدأت أكن لها كراهية حقيقية، ولا زلت أضمر قدراً من تلك الكراهية».

«وهكذا طلبت حضور بنّاء وأقمت هذه الشقة الصغيرة. وأنا أقطن هنا منذ ذلك الحين، وها قد شاهدت كل مايمكن مشاهدته».

انصت بركهارت بانتباه عميق، ولم يقاطعه قط، ولا حتى حين بدا أن فيراغوث كان يتوقع أو حتى يرغب في ذلك.

قال بحذر: «أنا سعيد لأنك ترى بنفسك كل شيء بوضوح تام. وكلامك ينطبق تماماً مع ماظننت. دعنا نتحدث عن الأمر أكثر. لقد بدأت بداية جيدة. وقد كنت أنتظر هذه اللحظة منذ أن أتيت، وأنت أيضاً. وكأنك كنت مصاباً بخراج فظيع مؤلم وكنت تشعر بشيء من الخجل منه. وها أنا الآن قد عرفت بأمره، وأصبحت أنت تشعر بإرتياح أكبر لأنه لم يعد ثمة من

حاجة إلى الكتمان. ولكن هذا لايكفي، فعلينا الآن أن نرى إن كان في مقدورنا أن ننكأه ونداويه».

نظر الرسام إليه، وهز رأسه بفتور، وابتسم. قال: «نداويه؟ إن مثل هذه الأشياء غير قابلة للشفاء منها. ولكن هيا إمض وانكأه».

هز بركهارت رأسه موافقاً. نعم، إنه يريد أن ينكأه، ولن يدع هذه الساعة تمر عبثاً.

قال بتفكر عميق: «ثمة أمر واحد في قصتك ليس واضحاً لي. لقد قلت إنك لم تطلِّق زوجتك بسبب بيير. ولكن ألم يكن في إمكانك أن تجبرها على أن تتخلى لك عن بيير؟ لو أنك لجأت إلى القضاء، لحكموا لك ربما بإعطائك أحد الولدين. ألم يخطر هذا ببالك قط؟».

«لا، يا أوتو، لم أفكر في ذلك قط. لم يخطر ببالي قط أنه يمكن لأي قاض مهما كان مقدار حكمته أن يصحح أخطائي وإهمالي. وإذا كنت أنا نفسي لا أملك القدرة على جعل زوجتي تتخلى عن الصبي، فليس أمامي إلا أن أنتظر لأرى فيما بعد لصالح من سيقرر بيير».

«إذن فالمسألة كلها تتعلق ببيير. فلولاه لكنت دون شك قد طلقت زوجتك منذ زمن طويل؛ كنت عثرت على شيء من السعادة في العالم أو لكنت على الأقل أوجدت أسلوباً واضحاً ومعقولاً في الحياة. لكنك بدل ذلك علقت في شرك من التسويات، والتضحيات، والذرائع التافهة كل عملها هو أن تخنق رجلاً مثلك».

رفع فيراغوث بصره مبدياً قلقه وجرع ملء كأس من

النبيذ.

«أنت لاتتكلم إلا عن الاختناق والدمار! ولكني كما ترى مازلت حياً وأعمل؛ لن أدع الأمر يذلني، لعنني الله إن أنا فعلت»، تجاهل أوتو توتر أعصاب فيراغوث. وتابع كلامه بإصرار رقيق.

«عذراً، ولكن هذا الكلام غير دقيق. إنك رجل قوي بشكل غير عادي وإلا لما صمدت كل تلك المدة في ظل مثل هذه الظروف أنت نفسك تعلم جيداً إلى أي مدى آذتك هذه الحياة ودفعتك نحو الهرم، ومحاولتك إخفاء الأمر عني عبث لاجدوى من ورائه. فعندما تخبرني شيئاً وترى عيناي آخر، فإني أصدق عينيّ، وأنا أرى أنك في وضع لاتحسد عليه. إن عملك يدفعك إلى الأمام، إلا أنه بمثابة المخدر أكثر من كونه مصدر سرور لك. إنك تهدر نصف طاقاتك الرائعة في نكران الذات وخلافات يومية حقيرة. أنت لست سعيداً، وفي أفضل الأحوال أنت مذعن للأمر الواقع. وهذا، يا بني، غير خليق بك».

«مذعن؟ ربما. كثيرون من الناس مثلي. من منا سعيد؟».

هتف بركهارت «إن كل من لديه أمل هو إنسان سعيد! وماذا لديك كي تأمل من أجله؟ ليس حتى نجاح مادي، أو مظاهر تشريف، أو مال؛ إن لديك منها مايفوق حاجتك. بل إنك لاتتذكر حتى ما الحياة وما الفرح. أنت راض، لأنك تخليت عن الأمل. إني أفهم هذا فهماً تاماً، لكنه وضع فظيع لايطاق، أشبه بخراج خطير، وكل مايصاب به ويرفض أن ينكأه جبان».

أخذ يقطع أرض الغرفة جيئة وذهاباً وهو في حالة توتر

عنيف، وبينما هو يتابع خطّته بطاقةٍ مكثَّفة، نهض وجه فيراغوث الطفل من أعماق الذاكرة، معيداً إليه شجاراً مماثلاً. ورفع عينيه، فالتقتا بوجه صديقه، الذي كان جالساً رابضاً، يحدق إلى الفراغ، وقد تلاشى كل أثر لقسمات عهد الطفولة. لقد نعته بالجبان متعمداً. أما الآن فإن هذا الرجل، الذي كان فيما مضى سريع التأذي، لايتخذ أي خطوة للدفاع عن نفسه.

اكتفى بأن صرخ بصوت ضعفه المرير: «هيا أكمل! لاترحمني. لقد رأيتَ في أي قفص أعيش. والآن بات في إمكانك أن تمد إصبعك إلى خزيي مباشرة وتزيده إيلاماً. تابع أرجوك. لن أدافع عن نفسي، بل إني حتى لن أغضب».

وقف أوتو أمامه. وشعر بشفقة بالغة عليه لكنه أجبر نفسه على أن يقول بفظاظة: «ولكن عليك أن تغضب. يجب أن ترمي بي إلى الخارج وأن تفصم عرى صداقتنا، وإلا كان عليك أن تعترف بأني على حق».

هنا نهض الرسام بدوره واقفاً، ولكن ببطء ورخاوة، وبلا حماس. قال بضجر: «حسن، أنت على حق، إذا كان هذا ماتريده! أنت تبالغ في تقديري، إنني لم أعد شاباً كما كنت، وليس من السهل إيذائي. وليس لدي أصدقاء كُثُر بحيث أتحمل التخلي عن أحدهم. ليس لي إلاك. إجلس وتناول كأساً آخر من النبيذ. إنه طيب. لن تحصل على نبيذ كهذا في الهند، ولعلك لن تعثر على أصدقاء كُثُراً هناك يصبرون على عنادك الأحمق».

ربت بركهارت برقة على كتفه وقال، بغضب تقريباً «دعنا من العواطف، وخاصة ليس الآن. قل لي ما اعتراضك عليّ، وبعد ذلك سوف نتابع».

«أوه، لا اعتراض لي عليك. أنت مثالي يا أوتو، مثالي منذ مايقارب العشرين عاماً وأنت شاهد على انحداري، لقد راقبتني بمنظار الصداقة وربما بأسف وأنا أغوص أعمق فأعمق في المستنقع، دون أن تتفوه بكلمة واحدة ولم تذلني عن طريق تقديم يدالعون. منذ سنين عديدة وأنت تعلم أني أحتفظ بقنينة من السيانيد، وقد لاحظت برضى نبيل أني لم أتناولها وأني في نهاية الأمر رميتها. والآن بعد أن غصت عميقاً جداً في الوحل بحيث يتعذر عليّ الخروج، ها أنت تقف أمامي هكذا تنتقدني وتنفحني بالنصح...»

احمرَّ وجهه، وحدقت عيناه المتقدتان يأساً. عندئذ فقط لاحظ أوتو، وقد أحس برغبة في أن يصب لنفسه كأساً آخراً من النبيذ فوجد أن القنينة قد فرغت، ولاحظ أن فيراغوث قد شرب كل النبيذ خلال تلك الدقائق القليلة.

تابع الرسام حركة عينيه ثم ضحك بصوت أجش.

هتف بغضب «أنا آسف. نعم، سكرت قليلاً، لاتنس أن تضع هذا في حسبانك. يحدث لي ذلك كل بضعة أشهر؛ أسكر قليلاً عن غير قصد... في الواقع، أحتاج إلى المنبه...»

قال، وقد وضع يديه بعزم على كتفي صديقه، بصوت كئيب علت فجأة نبرته وازداد وهنه: «إسمع يا أوتو، ربما كنت تمكنت من الإستمرار بدون السيانيد والنبيذ وما إلى ذلك لو أن أحدهم مدَّني بقليل من العون. لمَ تركتني أمعن في الغرق بحيث اضطررت إلى أن أستجدي قليلاً من الإنغماس الذاتي؟ إن أديل لم تتحملني، وألبرت ابتعد عني، وبيير سوف يتركني أيضا ذات يوم ـ وأنت تقف حيث أنت، تكتفي بالنظر. أما كان في مقدورك أن تفعل شيئاً؟ أما كان في وسعك أن تساعدني؟»

سكت الرسام فجأة، وغاص في كرسيه. كان لون بركهارت قد علاه شحوب الموتى. إن الأمر أسوأ مما توقع. يا لبضع كؤوس من النبيذ كيف دفعت هذا الأبيّ، الصلب، إلى الإدلاء بهذا الإعتراف المتساهل بعاره السرّي وبؤسه!

وقف إلى جوار فيراغوث وأخذ يكلمه برقة وكأنما يكلم طفلاً يحتاج إلى مواساة «سوف أساعدك، يا يوهان. صدقني، سوف أساعدك. لقد كنتُ حماراً، أعمى، وأحمق. سيسير كل شيء على أحسن مايرام، فلا تقلق».

تذكر مناسبات نادرة من فترة طفولتهما فَقَدَ خلالها صديقه السيطرة على أعصابه. وقد مَثُلَ أحد تلك المشاهد، وكان غافياً في أعماق ذاكرته، أمامه بجلاء غريب. وفي ذلك الوقت كان يوهان يصاحب فتاة جميلة، تلميذة تتعلم الرسم. وكان أوتو قد قال في حقها كلاماً يحط من قدرها، وأعلن فيراغوث بأشد العبارات عنفاً فصم عرى صداقتهما. ثم إثر مقدار صغير من النبيذ، احمرت عيناه وفقد السيطرة على صوته. لقد تركت هذه الذكرى العجيبة التي برزت من بين آثار منسية من ماض يبدو ظاهرياً نقياً تأثيراً غريباً على صديقه، ومرة أخرى أصابه الرعب من التكشف المفاجئ لهذه الهوة من الوحشة الداخلية وتعذيب الذات الكامنة في حياة فيراغوث. ولاشك في أن هذا هو السر الذي كان يوهان يشير إليه بين حين وآخر على مدى السنين، والذي تنطوي عليه، في رأي بركهارت، روح كل فنان عظيم. إذن فهذا هو منبع الدافع النهم بشكل خارق للرجل إلى الخلق، إلى القبض على العالم من جديد في كل ساعة بحواسه، وإخضاعه. وهذا أيضاً هو منبع الحزن الغريب الذي غالباً ما تملأ به الأعمال الفنية العظيمة

المشاهد الصامت.

شعر أوتو وكأنه لم يفهم قط صديقه فهماً تاماً إلا في تلك اللحظة. والآن بات يرى أعمق داخل النبع المظلم الذي تستمد منه روح يوهان القوة والمعاناة اللتين انغمست فيهما. وفي الوقت نفسه شعر بعزاء عميق، مفرح لأن المتألم تعرى أمامه هو بالذات، صديقه القديم، الذي اتهمه، وناشده العون.

بدا فيراغوث وكأنه نسي ما قال. فقد ارتاح في جلسته وهدأ مثل طفل بعد انتهاء نوبة غضبه، وأخيراً قال بصوت واضح: «لاحظّ لك معي هذه المرة. والسبب كله يعود إلى أني لم أؤد عملي اليومي. لقد أفلت زمام أعصابي. إن الأوقات الممتعة لاتتناسبني».

عندما حاول بركهات أن يمنعه من فتح قنينة أخرى، قال: «على أية حال لم يعد في إمكاني أن أنام. يعلم الله ما الذي يثير أعصابي هكذا. حسن، فلنشرب رشفة صغيرة فقط، إنك لم تكن بهذا التزمت ايام زمان. ـ أوه، تقصد بسبب أعصابي. سوف أعيدها إلى نصابها، لدي خبرة واسعة في هذا المجال. وفي غضون الأيام القليلة التالية سوف أباشر العمل في صباح كل يوم عند السادسة وفي كل مساء سوف أمتطي الحصان مدة ساعة».

وهكذا تلازم الصديقان حتى منتصف الليل. فكان يوهان يتكلم، يقلِّب ذكريات الأيام الخوالي، وأوتو ينصت، ورأى، باستمتاع شبه ممانع، سطحاً أملساً، ساكناً، عاكساً بشكل بهيج، ينطبق على أعماق مظلمة كانت قبل ذلك بقليل قد فغرت فاها أمام عينيه.

6

توجه بركهارت في صباح اليوم التالي لزيارة الرسام والقلق مايزال يتملكه. كان يتوقع أن يجد صديقه وقد تغيَّر وخشي أن يكون توتر الليلة السابقة قد أفسح المجال للسخرية والإحراج الباردين. وبدل ذلك، خفّ يوهان إلى مقابلته برصانة هادئة.

قال: «إذن فأنت مغادر غداً، كما فهمت. شكراً لك على كل شيء. إعلم أني لم أنس ما حدث ليلة أمس؛ ويجب أن نتحدث أكثر عنها».

وافق أوتو، على الرغم من شكوكه. «إذا شئت؛ لكني لا أريد أن أعود إلى إزعاجك بلا داع. لعلنا ليلة أمس نكأنا عدداً كبيراً من الجروح. لِمَ انتظرنا حتى اللحظة الأخيرة!».

تناولا طعام الإفطار في المحترف.

قال يوهان مشدداً: «لا، لقد أحسنا فعلاً؛ تصرفنا بالضبط التصرف الصحيح. لقد أمضيت ليلة أرقة وقلّبت التفكير في الأمر كله. لقد نكأتَ جروحاً عديدة، تفوق طاقتي على التحمل. تذكر أنه لم يكن لدي من أتكلم معه طوال سنين عديدة. أما الآن فيجب أن أضع كل الأمور في نصابها وأفعل ما يتوجب فعله، وإلا سأكون بحق الجبان الذي نعتّني به ليلة أمس».

«أوه، آآلمتك الكلمة؟ إنسها».

«لا، أعتقد أنك كدت أن تكون مصيباً. واليوم أود أن أقضي يوماً مرحاً آخر معك، سوف نخرج بالسيارة بعد ظهر اليوم وسأريك منطقة جميلة من الريف. ولكن علينا أولاً أن نعمل قليلاً على تصحيح الأمور. بالأمس خطر لي فجأة أنني قد فقدت صوابي. أما اليوم فقد قلّبت التفكير في كل شيء. وأعتقد أني بت أفهم الآن ما كنت تحاول أن تقوله لي بالأمس».

كان سلوكه وهو يتحدث غاية في الهدوء والود حتى أن هواجس بركهارت تبددت.

«إذا فهمت ما أعني، فإن كل شيء على أحسن مايرام ولا حاجة إلى أن نبدأ من البداية. لقد أخبرتني كيف حدث كل شيء وما هو وضع الأمور الآن. وقد فهمت أن السبب الوحيد الذي يجعلك تستمر في زواجك ووضع بيتك وفي كامل أسلوبك في الحياة هو أنك لاتريد أن تفارق بيير. هل أنا مصيب؟».

«نعم، تماماً؟»

«حسن، كيف ترى المستقبل؟ أعتقد أنك ألمحت إلى خوفك من فقدان بيير أيضاً مع مرور الزمن. أم أنني مخطئ؟».

تنهد فيراغوث بعمق ورفع يده إلى جبينه؛ لكنه واصل كلامه بنبرة الصوت نفسها: «لعل هذا ماسيحدث. هذه هي النقطة الموجعة. إذن فأنت ترى أن عليّ أن أتخلى عن الصبي؟»

«نعم، هذا ما أراه. لايبدو أن زوجتك ستدعك تأخذه وسوف يكلفك الأمر سنين طويلة من الصراع».

«ربما. ولكنه كل ما أملك يا أوتو، إنني أعيش بين الأطلال، وإذا ما متّ اليوم، فلا أحد غيرك وحفنة من الصحافيين سوف يهتم لذلك. أنا رجل مسكين، ولكن لازال لدي هذا الطفل، مازال لدي هذا الولد الصغير العزيز عليّ الذي يمكنني أن أكرس حياتي له وأن أحبه، والذي عانيت من أجله ويمكنني وأنا أقضي معه ساعات سعيدة فيها أنسى نفسي. أظنك تفهم هذا، أليس كذلك؟ وأنت تريدني أن أتخلى عنه» .

«إن الأمر ليس سهلاً يا يوهان. إنه عمل كريه، وأنا لا أرى أية وسيلة أخرى. إسمع، أنت نسيت كيف هو العالم الخارجي. إنك تدفن نفسك هنا، غارق في عملك وفي حياتك الزوجية التعيسة. اتخذ خطوة، تحرر من كل هذا؛ سوف تفتح عينيك وترى أن في العالم آلافاً من الأشياء الرائعة يقدمها إليك. لقد أطلت معايشتك للأشياء الميتة، وفقدت اتصالك بالحياة. طبعاً أنت متعلق ببيير، وهو طفل بهيج؛ ولكن ليست هذه النقطة الأساسية. كن قاسياً قليلاً ولو مرة واحدة واسأل نفسك إن كان حقاً يحتاج إليك».

«إن كان يحتاجني...؟»

«نعم. إن ما تستطيع أن تعطيه هو الحب، الحنان، المشاعر ـ أي أشياء لايحتاجها الصغار بشكل عام بالقدر الذي نظنه نحن البالغين. ومن ناحية أخرى، إن الطفل ينمو مع أب وأم يكاد يكون كل منهما غريب عن الآخر، بل إن كلاً منهما يغار في الحقيقة من الآخر لفائدته الخاصة. إنه لايتثقف على ضوء القدوة الحسنة لبيت سليم، سعيد، إنه ناضج قبل الأوان، وسوف ينشأ غير متكيف ـ وذات يوم،

واغفر لي، سيضطر إلى أن يختار بينك وبين أمه. ألا تدرك هذا؟».

«لعلك على حق. بل إنك على حق مطلق. لكني عند هذه النقطة أكف عن التفكير. إنني متعلق بالطفل، متشبث بحبه، لأني لم أعرف أي نوع آخر من الدفء أو النور منذ زمن طويل. لعله سيتخلى عني في غضون بضع سنين، لعله سيخيب أملي فيه أو حتى سيكرهني ذات يوم ـ مثلما يكرهني ألبرت؛ فعندما كان في الرابعة عشرة من عمره رماني بمطواته. لكن لازال أمامي بضع سنوات أقضيها معه وأحبه، يمكنني أن أضع يدي الصغيرة في يده وأنصت إلى صوته الطفولي المشرق لتغريد عصفور ـ ما زلت أملك هذا. والآن قل لي: أيجب أن أتخلى عن ذلك؟ أيجب؟»

هز بركهارت كتفيه بحزن وقطب مابين حاجبيه، وقال بصوت خفيض جداً «عليك أن تفعل يا يوهان. أعتقد أنك يجب أن تفعل. ليس من الضروري أن يحدث هذا اليوم، ولكن في وقت قريب. يجب أن ترمي بكل ما تملك وتنفض يديك تماماً من الماضي؛ وإلا فلن تستطيع أبداً أن تواجه العالم كرجل حرّ وسعيد. إفعل مافي وسعك. إذا كانت الخطوة أصعب من أن تقوم بها، إبق هنا واستمر في عيش هذه الحياة ـ وسأظل صديقاً لك، وستظل تحتفظ بي، وأنت تعلم ذلك. ولكني سوف أندم».

«انصحني. إني لا أرى إلا الظلام أمامي».

«سأعطيك بعض النصائح. نحن الآن في تموز؛ في الخريف سأعود إلى الهند. قبل أن أرحل سأرجع إلى هنا؛ وحتى ذلك الحين آمل أن تكون قد حزمت حقائبك وأصبحت

جاهزاً للرحيل معي. فإذا عقدت عزمك من الآن وحتى ذلك الحين على الموافقة، فهذا أفضل. أما إذا لم تعقد عزمك، تعال معي واخرج من هذا الجو مدة عام من الزمن، أو ستة أشهر إذا شئت، فمعي ستكون قادراً على أن ترسم وتركب الخيل، ستتمكن أيضاً من صيد النمور وأن تقيم علاقات حب مع نساء مالاويات ـ وبعضهن جميلات ـ وعلى كل حال، ستبتعد عن هذا المكان فترة من الوقت، ستتوفر لك فرصة لتعرف إن لم تكن حياة أفضل. فما رأيك؟».

أغمض الرسام عينيه، وهز رأسه الكبير الأشعث الشعر ذا الوجه الشاحب والشفتين المتحفظتين.

هتف بشبه ابتسامة: «شكراً لك، شكراً لك، أنت عطوف جداً. في الخريف سأخبرك إن كنت سآتي معك. أرجو أن تترك الصور الفوتوغرافية هنا».

«يمكنك أن تحتفظ بها. ولكن ـ ألا تستطيع أن تتخذ قرارك بشأن الرحلة اليوم أو غداً؟ سيكون ذلك خيراً لك».

نهض فيراغوث واقفاً ومشى حتى الباب: «لا، لا أستطيع أن أفعل ذلك. يعلم الله ماذا سيحدث من الآن وحتى ذلك الوقت. منذ سنين طويلة لم أفارق بيير أكثر من ثلاثة أسابيع أو أربعة».

«أعتقد أني سآتي معك ولكني لا أريد أن أقول شيئاً قد أندم عليه».

«حسن، سندع الأمر عند هذا الحد. أنت دائماً تعرف أين تجدني. وإذا ما أبرقت لي ذات يوم ثلاث كلمات، تقول فيها إنك قادم، فلن تكون مضطراً إلى أن تحرك إصبعاً واحداً فيما

يخص الرحلة. سوف أهتم بكل شيء؛ فقط خذ معك بعض القمصان والملابس الداخلية ومستلزمات الرسم، وأكثر منها؛ وكل ما عدا ذلك سأرسله إلى جنوا».

عانقه فيراغوث في صمت.

«لقد كنت ذا عون لي، يا أوتو. لن أنسى لك هذا. ـ والآن سأرسل في طلب العربة، إنهم لايتوقعون حضورنا لتناول الطعام طوال هذا اليوم. فلنترك كل شيء ولنستمتع معاً بيوم جميل. كما اعتدنا أن نفعل في العطل الصيفية. سوف نقود العربة خلال الريف، ونتفرج على بعض القرى الجميلة، ونستلقي في الغابة. سوف نأكل سمك التروت ونشرب النبيذ الريفي الجيد بكؤوس غليظة. ما أروع الجو في هذا اليوم! «إنه لم يتبدل منذ عشرة أيام». ضحك بركهارت، وشاركه فيراغوث الضحك.

«أوه، يخيل إليّ أن الشمس لم تشرق هكذا منذ سنين!».

7

بعد رحيل بركهارت انتاب الرسام إحساس غريب بالوحشة. تلك الوحشة نفسها التي كان قد عاشها سنين وسنين، والتي وطّنته، بعد طول معايشتها، على القساوة وكادت تحجر قلبه؛ أغارت عليه كعدو جديد غريب، زحفت عليه، اكتنفته من كل جانب تبغي خنقه. وشعر في الوقت نفسه أنه ازداد انفصالاً أكثر من أي وقتٍ آخر عن عائلته، وحتى عن بيير. إنه لم يعرفها، لكن سببها كان عائداً إلى أنه تحدّث عن تلك الأمور للمرة الأولى.

حتى إنه أصبح أحياناً يعرف معنى الإحساس الرهيب، المذلّ، بالضجر. وكان فيراغوث حتى ذلك الحين قد عاش حياة غير طبيعية، متماسكة، لرجل فَقَدَ، بعد أن تحصّن بملء إرادته، اهتمامه بالحياة، التي تحمّلها ولم يعشها. وقد خرقت زيارة صديقه سوره؛ وبمئة طريقة وطريقة نفذ ضجيج الحياة وتلألؤها، عبيرها وملمسها إلى الرجل المنعزل؛ انكسر السحر القديم، ولما استيقظ من سباته، هدر نداء مدوٍ من الخارج وطرق أذنيه حتى كاد يؤلمهما.

اندفع بانهماك مكثّف ينغمس في عمله، فباشر في قطعتين كبيرتين في وقت واحد تقريباً. كان يبدأ يومه بأخذ

حمام بارد عند شروق الشمس ومن ثم يعمل بدون توقف حتى الظهيرة؛ وبعد فترة استراحة قصيرة ينعش نفسه بشرب القهوة وتدخين سيجار، وأحياناً يستيقظ ليلاً وقد تسارع وجيب قلبه ويعاني من آلام الصداع. لكنه كان يحمل معه، بالاندفاع وضبط النفس، لاتحجبه إلا أرقّ غلالة، إدراكه أن الباب مشرّع وأنه تكفي خطوة واحدة يخطوها عندما يشاء، ويصل إلى الحرية.

لم يكن يفكر؛ كان يميت أفكاره بالعمل المتواصل. وكان لسان حال شعوره هو: في إمكانك أن تنطلق وقتما تشاء، فالباب مشرع، وفي مقدورك أن تحطم أغلالك ـ لكن ذلك سيكلفك اتخاذ قرار صعب وتضحية ثقيلة، ثقيلة ـ فلا تفكر في الأمر، وليكن ذلك فوق كل اعتبار! لقد كان القرار الذي توقعه منه بركهارت، والذي كان ربما قد اتخذه لتوه، راسخاً في عقله كاستقرار طلقة في لحم رجل جريح؛ والسؤال الوحيد المطروح كان هل سيشق طريقه خارجاً من القرح المتقيح أم سينطمر بشدة تزداد باضطراد. وأخذ يَفْسد ويؤلم، لكنه لم يكن قد بدأ يوجع بالقدر الكافي؛ لقد كان الألم الذي يخشى أن يتلقاه من تضحيته أفدح بكثير. لذا لم يفعل أي شيء؛ ترك جرحه الخفي يلتهب، وكان طوال الوقت يتوق توقاً يائساً ليعرف إلام سينتهي الأمر برّمته.

وسط بلواه هذه رسم تكويناً كبيراً؛ وقد كانت فكرته حاضرة منذ أمد طويل في ذهنه، لكنها الآن فتنته على حين فجأة. في أول الأمر، وكان ذلك قبل بضع سنوات، كانت الفكرة تمتعه، ثم أخذت شيئاً فشيئاً تبدو له خاوية ومجازية، وأخيراً

تخلى عنها بكلِّيتها. أما الآن فقد رأى الصورة بأكملها بوضوح؛ ونسي المجاز، وانطلق يعمل والرؤيا جلية نضرة أمامه.

كان هناك ثلاثة أشخاص بالحجم الطبيعي: رجل وامرأة، كل منهما غارقٌ في ذاته ومغتربٌ كلٌ عن الآخر، وبينهما طفل يلعب، سعيداً تخيم عليه السكينة ولاينتابه ظل من شك في السحابة المعلقة فوقه. لقد كان المغزى الشخصي جلياً، ولكن لا الرجل يشبه في شيء الرسام ولا المرأة تشبه زوجته؛ بيد أن الطفل كان هو بيير، وإن كان أصغر سناً ببضعة أعوام. لقد رسم ابنه مضفياً عليه كل سحر ونبالة أفضل لوحاته؛ كان الشخصان يجلس كل منهما في ناحية في تماثل صارم، يمثِّلان صورتين قاسيتين، محزنتين، للوحشة؛ الرجل يتفكر بكآبة ثقيلة، ورأسه مرتاح في إحدى يديه، والمرأة غارقة في المعاناة والفراغ الممل.

لم تكن حياة روبرت؛ الخادم، بالحياة الممتعة كثيراً. فقد أخذ الهر فيراغوث يزداد توتراً بشكل غريب. لم يكن يحتمل أوهى صوت صادر من الغرفة المجاورة أثناء انهماكه في العمل.

كان الأمل السري الذي انتعش في فيراغوث منذ زيارة بركهارت يتلظى كألسنة اللهب في صدره؛ ومهما كبحه يظل يتلظى، يلون أحلامه ليلاً بضياء يفتن، يغوي حاول أن يتجاهله، أن يبعده عن أفكاره. فكل ما كان يريده أن يعمل بقلب تغمره السكينة لكنه لم يجد السكينة. شعر بثلج وجوده الكئيب يذوب وبكامل أساس حياته يتداعى؛ وفي أحلامه رأى محترفه مغلقاً وخاوياً، رأى زوجته ترحل بعيداً عنه، لكنها

أخذت معها بيير، ورأى الولد يمد ذراعيه النحيلين إليه. وكان أحياناً يجلس في ساعات المساء وحده في غرفة جلوسه غير المريحة، غارقاً وسط الصور الفوتوغرافية الهندية؛ ومن ثم أخيراً ينحيها جانباً ويغمض عينيه المتعبتين.

في داخله كانت قوتان منخرطتان في صراع مرير، لكن الأمل كان أقوى. كان عليه أن يراجع دون انقطاع أحاديثه مع أوتو؛ وكانت رغبات طبيعته المتقدة وحاجاتها المكبوتة تتصاعد بحرارة متزايدة من الأعماق التي طال بقاؤها فيها متجمدة، مسجونة، وقد هزم هذا الارتفاع المفاجئ، هذا الذوبان الربيعي وهمه القديم، الوهم السقيم حول كونه رجلاً عجوزاً لم يبق أمامه إلا أن يتحمَّل الحياة. لقد انكسر سبات إذعانه العميق، الفعَّال، ومن خلال الشق انبثقت قوى لا واعية وغريزية لحياة طال لجمها وخيانتها.

كان كلما زاد وضوح الأصوات التي سمعها، ارتعش أكثر من الداخل من فرط الخوف من اليقظة الأخيرة. وأغمض عينيه المبهورتين مرة بعد اخرى بينما كل خيط ملتهب من كيانه كان يتمرد على التضحية المطلوبة.

بات يوهان فيراغوث نادراً ما يُرى في منزل العزبة، كان يتناول كل وجباته تقريباً في المحترف وغالباً ما كان يقضي أمسياته في البلدة. ولكنه عندما كان يقابل زوجته أو ألبرت، يبدو هادئاً ورقيقاً وكأنه نسي كل عدائيته.

بدا أنه لايهتم بأمر بيير. وفي السابق كان يغري الطفل بالمجيء إلى المحترف مرة في اليوم على الأقل ويستبقيه هناك أو يخرج معه إلى الحديقة. والآن تمر أيام طويلة دون أن يراه أو يتوق إلى حضوره. وعندما يقابله على الدرب،

يقبّله على جبينه وهو شارد الذهن، وينظر في عينيه بحزن ذاهل، ثم يمضي في طريقه.

بعد ظهر أحد الأيام توجه فيراغوث إلى بستان أشجار الكستناء. وكانت تهب ريح منعشة، والمطر الرخي يهطل منحرفاً بقطرات صغيرة. سمع موسيقا ترجُع من نوافذ المنزل المفتوحة، فتوقف الرسام لايبدي حراكاً وراح ينصت. لم يميز المقطوعة. كانت موسيقا نقية وجادة بجمالها الصارم، وحسنة التأليف، والتوازن، وأنصت فيراغوث باستمتاع متأمل. غريب كيف بدت أنها موسيقا خاصة بالعجائز؛ بدت راشدة جداً وسلفية، وخالية من الشعر الباخوسي[1] للموسيقا التي طالما أحبها أكثر من أي شيء في شبابه.

سار بهدوء وولج المنزل، ثم ارتقى الدرج، ودخل إلى غرفة الموسيقا دون إصدار أي صوت وبدون إنذار، وهناك لم يلاحظ قدومه غير فراو أديل. كان ألبرت يعزف وأمه واقفة تنصت إلى صوت البيانو؛ وجلس فيراغوث على أقرب كرسي، وأطرق رأسه، وتابع إنصاته. وكان بين الفينة والأخرى يرفع بصره ويترك عينيه تستقران على زوجته. إن هذا البيت بيتها. وفي هذه الغرف أمضت سنوات هادئة، لامبالية، كما أمضاها هو في محترفه على ضفاف البحيرة، ولكن هي كان لديها ألبرت، وقد تقدمت في السن معه، وأضحى ابنهما الآن ضيفها وصديقها، ويسكن معها في المنزل. لقد تقدمت فراو أديل قليلاً في السن، وتعلمت أن تعيش بهدوء وعثرت بذلك على القناعة؛ وقد أصبحت تعابير وجهها صارمة وفمها جامداً؛

(١) باخوسي: نسبة إلى باخوس، إله العربدة والسكر والنشوة الجسدية.

لكنها لم تجتث من جذورها؛ عاشت آمنة ضمن جوها العام، وفي هذا الجو ينمو ولداها. وهي لاتنطوي على حنان وافر أو مندفع، وتفتقر تقريباً إلى كل ما كان زوجها يفتش عنه فيها ويأمل في وجوده، ولكن جواً بيتياً كان يحيط بها، وكانت هناك سمة مميزة في وجهها وفي حضورها، وفي عزفها؛ وتلك تربة يمكن لولديها أن يترعرعا فيها ويزدهرا كما يجب.

أومأ فيراغوث برأسه وكأنما برضى. ها هنا لا أحد سيخسر إذا ما اختفى هو إلى الأبد. في هذا البيت لا حاجة ماسة إليه. إن في استطاعته أن يبني لنفسه محترفاً في أي مكان من العالم ويحيط نفسه بالنشاط والحماس المتقد للعمل، لكنه لن يكون أبداً بيتاً. والحقيقة هي أنه كان يعرف كل ذلك طوال الوقت، وهو عادل أيضاً.

كفّ ألبرت عن العزف. فقد شعر، أو أنه شاهد في عيني أمه، أن أحدهم قد دخل الغرفة. فاستدار وألقى على والده نظرة دهشة وريبة.

قال فيراغوث: «مساء الخير».

أجاب ابنه: «بارتباك، مساء الخير، وأخذ يشغل نفسه بشيء عند خزانة الموسيقا».

سأل فيراغوث بود: «أكنت تعزف؟»

هز ألبرت كتفيه استخفافاً وكأنه يسأله: ألم تسمع؟ واحمر وجهه خجلاً وأخفى وجهه عميقاً بين رفوف الخزانة.

تابع فيراغوث قائلاً، وهو يبتسم: «موسيقا جميلة». كان يدرك بقوة أن زيارته غير مرغوب فيها؛ فقال في استمتاع

خاص خبيث: «هلا عزفت شيئاً آخر؟ أي شيء تريده. لقد أحرزت تقدماً كبيراً»، قال ألبرت بنزق: «أوه، مزاجي لم يعد كما ينبغي».

أنا متأكد من أن الأمر سيكون على أحسن ما يرام. إعزف أرجوك.

رمت فراو فيراغوث نظرة مستفهمة على زوجها.

قالت وهي تضع نوتة موسيقا على الحامل. «هيا يا ألبرت، أجلس» وبينما هي تفعل مسّ كمّها برفق مزهرية فضية صغيرة ملأى بالورد، فسقطت بضع بتلات شاحبة اللون على الخشب الأسود اللون الفائق الصقل.

جلس الصبي على مقعد آلة البيانو وبدا يعزف. أخذ يكر الموسيقا، وهو مرتبك وغاضب، وكأنه يؤدي واجباً مملاً، بسرعة وبلا رغبة. ظل والده ينصت بانتباه بعض الوقت، ثم غاص في أفكاره، وأخيراً نهض واقفاً وغادر الغرفة بدون أن يصدر أي صوت وقبل أن ينتهي ألبرت من عزفه. وحين أصبح في الخارج، سمع الصبي يضرب فعنف على المفاتيح ومن ثم كف عن العزف.

كان لسان حال أفكار الرسام وهو يهبط الدرج: لن يفتقداني أبداً بعد أن أرحل. يا إلهي، كم نحن متباعدون، ومع ذلك كنا ذات يوم نؤلف عائلة من النوع الرديء.

في الرواق هرع بيير نحوه، مشرقاً ويطفر من شدة الفرح.

صرخ لاهث الأنفاس: «أوه، بابا، أنا سعيد لأنك هنا. أتعرف، إن لدي فأراً، فأر صغير حي! انظر، هنا في يدي ـ

أترى عينيه؟ القطة الصفراء قبضت عليه، كانت تعبث به، وقد عذّبته، وظلت تدعه يركض مبتعداً قليلاً ومن ثم تقبض عليه من جديد. فمددت يدي، بسرعة، بسرعة، وانتزعت الفأر من تحت أنفها. ماذا سنفعل به الآن؟».

رفع بصره، وهو متورد من فرط السرور، لكنه ارتعش بينما كان الفأر يصارع داخل قبضة اليد الصغيرة، والمحكمة الإغلاق، مصدراً صرير فزع قصيراً.

قال الأب: «سوف نأخذه إلى الحديقة ونطلق سراحه. هيا»، تزوّد بمظلة وصحب الولد معه. كانت السماء قد ازداد ضياؤها وتحول المطر إلى رذاذ؛ وأخذت جذوع أشجار السنديان الرطبة، والملساء تتلألأ بلونها الأسود مثل زهر الحديد.

توقفا في بقعة تشكل عندها جذور أشجار عدة كتلة متشابكة، قاسية، ومعقدة. جثم بيير على الأرض وفتح يده ببطء شديد. كان وجهه متورداً وعيناه ذواتا اللون الرمادي الفاتح تومضان بالإثارة. وفجأة، وكأن ترقبه أصبح أقوى بكثير من أن يتحمله، فتح يده واسعاً، فاندفع الفأر، ذاك المخلوق الصغير جداً، اندفاعاً أعمى خارجاً من سجنه، ثم توقف على مبعدة بضعة أقدام بجانب عقدة كبيرة من الجذور، وجلس هناك بهدوء، وجنباه يخفقان وعيناه الصغيرتان السوداوان البراقتان تنتقلان بسرعة كبيرة من هذه الجهة إلى تلك.

صرخ بيير فرحاً وصفق بيديه. وتملك الرعب الفأر واختفى، كأنما بفعل سحر، داخل الأرض. فمسد الوالد برفق على شعر الطفل الكثيف.

«هلا أتيت معي يا بيير؟»

وضع الطفل يده اليمنى في يد والده اليسرى وذهب معه.

«الآن انضم الفأر الصغير في البيت إلى أبيه وأمه، وهو يخبرهما عن القصة كلها».

تدفقت الكلمات منه تدفقاً فشد الرسام على يده الصغيرة الدافئة بقوة. ومع كل كلمة وصرخة فرح يطلقها الطفل، كان قلبه يرتعش ويغوص عائداً إلى عبودية سحر الحب الثقيل الوطأة.

أوه، لن يختبر أبداً حباً يعادل حبه لهذا الطفل. لن يعرف أبداً لحظات مترعة هكذا بحنان دافئ متوهج، بنكران ذات مرح، بعذوبة شديدة، كئيبة، كما يعرفها مع بيير، الذي يمثل آخر صورة جميلة لشبابه هو. لقد بدا لفيراغوث أن سحره، وضحكه، ونضارته الهادئة، هي آخر نغمة فرح صرف في حياته، آخر أيكة ورد مزهرة في حديقة خريفية، يتريث فيها الدفء والشمس الساطعة، الصيف والفرح الرعوي، ولكن عندما تجرّدها العاصفة أو الصقيع من بتلاتها، ينتهي عهد كل بهجة، كل سعادة حميمة.

سأله بيير فجأة: «لماذا لاتحب ألبير؟»

ضغط فيراغوث بقوة أكبر على يد الطفل: «بل أحبه. كل مافي الأمر أنه يحب أمه أكثر مما يحبني. ولايد لي في ذلك».

«أعتقد أنه لايحبك أبداً يا بابا. وهل تعلم أنه لم يحبني أنا أيضاً كما كان يفعل في السابق. إنه دائماً يعزف على البيانو أو يجلس وحيداً في غرفته. وفي اليوم الأول لقدومه، حكيت له عن حديقتي التي زرعتها بنفسي، وكل ما فعله أنه

رسم تعبيراً مترفعاً ـ متغطرساً على وجهه وقال: حسن، سوف نذهب غداً لنلقي نظرة على حديقتك، لكنه لم يأت على ذكرها قط. إنه ليس صديقاً جيداً، ثم إنه بدأ ينمي شارباً صغيراً. وهو دائماً يلازم أمي، إني لا أكاد أستطيع أن أنفرد بها».

«لكنه لن يمكث هنا أكثر من بضعة أسابيع، يا بني، لاتنسى ذلك. وإذا كنت لاتتمكن من الانفراد بالماما، يمكنك دائماً أن تأتي وتزورني. ألا تحب ذلك؟»

«الأمر مختلف، يا بابا. أحياناً أحب أن أذهب لأراك وأحيانا أفضل أن أكون مع الماما. ثم إنك دائماً منهمك جداً في العمل».

«يجب أن لاتدع هذا يقلقك يا بيير. وعندما تشعر برغبة في رؤيتي، في وسعك دائماً أن تأتي ـ دائماً، أتسمع، حتى إذا كنت في المحترف أعمل».

لم يدلِ الصبي بجواب. واكتفى بالنظر إلى والده، وتنهد قليلاً، وبدا عليه الاستياء.

سأله فيراغوث، وقد غمّه التعبير المرتسم على وجه الطفل، والذي كان قبلها بلحظة يشع بالبشر الطفولي أما الآن فبدا منطوياً على نفسه وأكبر سناً بكثير ألا يناسبك هذا؟».

عاد يكرر سؤاله: «تكلم يا بيير. ألا يسرك وجودك معي؟»

«طبعاً يسرني يا بابا. ولكني لا أريد في الحقيقة أن أذهب لأراك عندما تكون ترسم. كنت أفعل ذلك بين حين وآخر...»

«حسن، ما الذي لايعجبك؟».

«في الحقيقة يا بابا، عندما أذهب وأزورك في المحترف، فإنك دائماً تمسد على شعري ولاتقول شيئاً وتكون عيناك مختلفتين تماماً، وأحياناً يطل الغضب منهما. نعم. ثم إذا قلت شيئاً، أفهم من عينيك أنك لاتنصت، وتكتفي بقول نعم، نعم، دون أن توليني انتباهاً. إني عندما آتي راغباً في أن أخبرك بأمر أريد منك أن تنصت إليّ».

«ومع ذلك، يجب أن تأتي مرة أخرى، يا حبيبي. في الواقع، إذا كنت مستغرقاً في تفكير عميق في عملي ويكون عليّ أن أجهد عقلي لإيجاد أفضل السبل لفعل شيء ما، فإني أحياناً لا أستطيع أن أتخلص من هذه الحالة على الفور وأنصت إليك. لكني سأحاول في المرة القادمة أن أفعل عندما تأتي».

«نعم، أنا أفهم. الأمر نفسه يحدث معي. أحياناً وأنا أفكر في أمر ما وينادي عليّ أحدهم ويفترض بي أن ألبي - يكون الأمر فظيعاً. أحياناً أرغب في أن أبقى ساكناً وأفكر طوال النهار، ويحدث هذا بالضبط عندما يكون عليّ أن ألعب أو أدرس أو أن أفعل شيئاً، عندئذ أغضب كثيراً».

حدق بيير عميقاً إلى الفضاء، مجهداً نفسه للتعبير عما يعنيه. لقد كان ذلك صعباً، وفي أغلب الأحيان لا أحد يفهمه على الإطلاق.

كانا قد دخلا غرفة جلوس فيراغوث. فجلس وأمسك بالطفل بين ركبتيه. قال مهدئاً: «أنا أعرف ما تعنيه يا بيير. والآن هل ترغب في مشاهدة اللوحات، أم تفضل أن ترسم؟ لِمَ لا ترسم قصةالفأر؟»

«آه، نعم، سأفعل ذلك. لكني سأحتاج إلى صفيحة كبيرة جيدة من الورق».

تناول فيراغوث صفيحة من ورق الرسم من درج الطاولة، وبرى قلم رصاص، وقرّب كرسياً من أجل الصبي.

ركع بيير على الكرسي وباشر على الفور رسم الفأر والقطة. ولكي لايزعج الطفل جلس فيراغوث خلفه، يراقب عنقه النحيل الملفوح بأشعة الشمس، وظهره الجميل، ورأسه الأرستقراطي المتصلب. وكان بيير منهمكاً عميقاً في عمله، مع مايصحب ذلك من حركات برمة من الشفة. وكان كل خط، وضربة ناجحة أو فاشلة، تنعكس بوضوح على شفتيه القلقتين، وعلى حركات الحاجبين وتغضنات جبينه.

بعد بعض الوقت صرخ بيير: «أوه، ليست جيدة» واستقام في جلسته، ثم أسند خديه على يديه المفتوحتين، وراح يتفحص رسمه بعبوس منتقد.

قال بضيق صدر كئيب «إني لا أحرز أي تقدم. بابا، كيف ترسم قطة؟ قطتي تبدو أشبه بكلب».

أخذ والده الورقة ودقق فيها برصانة.

قال برقة: «علينا أن نجري بعض المحو. الرأس أكبر من اللازم وليس مستديراً كفاية، والسيقان أطول مما ينبغي. انتظر، سوف ننجح».

أجرى ممحاته، بحذر،على ورقة بيير، ثم تناول صحيفة ورق جديدة، ورسم قطة عليها.

«أنظر، هكذا يجب أن تكون. تأملها برهة، وبعد ذلك أرسم قطة جديدة».

لكن صبر بيير كان قد استُنفِذْ، فأعاد قلم الرصاص، وعندئذ بات على والده أن يرسم، بعد القطة، قطيطة، ومن ثم فأراً، وبعد ذلك يأتي بيير ويطلق سراح الفأر، وأخيراً طلب الطفل رسم عربة بأحصنة وحوذي جالس على الصندوق.

فجأة، حتى هذا أثار ضجره. أخذ الصبي يجري في أنحاء الغرفة وهو يغني، وأطل من النافذة ليرى إن كانت ما تزال تمطر، ثم خرج من الباب وثباً. كان في الإمكان سماع صوته الضعيف والعالي النبرة من تحت النوافذ يغني، ومن ثم ران الصمت. وجلس فيراغوث وحيداً، يحمل صفيحة الورق المرسوم عليها القطط.

8

وقف فيراغوث يواجه لوحته الكبيرة ذات الأشخاص الثلاثة، وهو يعمل على رسم ثوب المرأة ذي اللون الأخضر المائل إلى الزرقة الفاتح. على نحرها حلية صغيرة ذهبية تلمع حزينة، مستوحشة، تُمسِكُ وحدها بالضوء النفيس الذي لم يجد له استراحة على الوجه المظلل وانزلق غريباً وكئيباً على الثوب البارد الأزرق اللون... إنه الضوء عينه الذي كان يعبث بمرح ورقّة بالشعر الأشقر الأشعث للطفل الجميل الواقف إلى جانبها.

سُمع قرع على الباب. فتراجع الرسام متوتراً. وعندما تكرر القرع بعد برهة انتظار قصيرة، مشى بخطى واسعة إلى الباب وفتحه بمقدار شقة.

كان ألبرت واقفاً هناك، ولم يكن قد وطأ المحترف منذ بدء العطلة. نظر، وهو يحمل قبعة القش بيده، إلى وجه والده المشدود، نظرة ملتبسة.

دعاه فيراغوث إلى الدخول.

«مرحباً بك يا ألبرت. أعتقد أنك جئت لتشاهد رسومي. لايوجد منها الكثير هنا».

«أوه، لم أكن أرغب في إزعاجك. أردت فقط أن أسألك...»

لكن فيراغوث كان قد أغلق الباب وتوجه متجاوزاً حامل اللوحة على منصب مدهون باللون الرمادي حيث كانت لوحاته قائمة داخل أدراج طويلة ضيقة مزودة ببكرات. وأخرج لوحة السمكتين.

وقف ألبرت إلى جوار والده بإرتباك وراحا ينظران معاً إلى اللوحة التي يغلب عليها اللون الفضي الخفاق.

سأله فيراغوث بمرح: «هل تهتم بالرسم؟ أم أن الموسيقا هي اهتمامك الوحيد».

«أوه إني شديد الولع بالرسم، وهذه جميلة».

«أتعجبك؟ أنا سعيد لذلك. سأصنع صورة فوتوغرافية عنها لأجلك. وما شعورك بعد عودتك إلى روسهالده؟»

«شكراً لك، يا بابا، أنا في غاية السعادة. ولكن حقاً لم أرد أن أزعجك. جئت فقط لأسألك...»

لم يكن الرسام منصتاً. راح ينظر بشرود إلى وجه ابنه، وعلى وجهه تعبير متتبّع، ومشدود، يحمله دائماً عندما يعمل.

قل لي، ماهي ردة فعلكم، أنتم الشباب، اتجاه الفن في هذه الأيام؟ أقصد، هل تتفق مع نيتشه، أم أنك ما زلت تقرأ تين[1] ـ لقد كان متقد الذهن، يجب أن أعترف، لكنه ممل ـ أم أن لديك أفكاراً جديدة؟

«أنا لم أقرأ «تين»، بعد. أنا متأكد أنك قلّبت التفكير في مثل هذه المواضع أكثر مني بكثير».

«في السابق، نعم، فالفن والثقافة، والجانب الأبولوني والديونيزي وكل ذلك، كان يبدو لي على جانب كبير من

(١) ايبوليت تين (١٨٢٨ ـ ١٨٩٣) مؤرخ فرنسي.

الأهمية. أما اليوم فيكفيني أن أنجز لوحة جيدة، ولم أعد أرى مشاكل قط، على أية حال ليس مشاكل فلسفية. وإذا كان عليّ أن أخبرك لماذا أصبحت رساماًولماذا أضع الألوان على اللوحات، أقول: إنني أرسم لأنه لا ذيل لدي لأهزّه».

نظر ألبرت باندهاش إلى والده، الذي لم يكن قد تحدث معه هكذا منذ زمن بعيد. «لاذيل؟ ماذا تقصد؟»

«الأمر بسيط جداً. إن للكلاب والقطط والحيوانات الموهوبة الأخرى ذيولاً؛ وأذيالها، بآلاف زخرفاتها، تزودها بلغة كزخرفة الأرابسك كاملة بشكل رائع، لاتلجأ إليها فقط لتعبّر بها عما يجول في خواطرها وعن مشاعرها ومعاناتها بل لتنقل بواسطتها كل تقلبات مزاجها وارتعاشات كيانها، بل وأدق ارتعاشة في نبرة شعورها. ونحن لا أذيال لنا، ولما كان أشدنا حيوية يحتاج إلى شكل مشابه للتعبير، فإننا نصنع لأنفسنا فراشي للرسم وآلات بيانو وكمان...»

سكت وكأنه قد فقد فجأة اهتمامه بالمحادثة، أو كأنما اكتشف أنه إنما يتكلم وحده، ولا يلقى استجابة حقيقية من ألبرت.

ثم قال على عجل، «حسن، شكراً لزيارتك».

كان عندئذ قد عاد إلى لوحته والتقط مِلْوَنهِ، وأخذ يحدق منقباً إلى النقطة التي وضع عليها آخر ضربة من ريشة.

«عذراً، بابا، أردت أن أطلب منك شيئاً...»

استدار فيراغوث؛ وقد شردت لتوها عيناه بعيداً، وفقد الاتصال بكل شيء خارج عمله.

«ماهو؟»

«أود أن أصحب بيير في نزهة بالعربة. قالت الماما إن في استطاعتي أن أفعل لكنها طلبت مني أن أستأذنك».

«وإلى أين تريد أن تذهب؟»

«في نزهة بضع ساعات في الريف، ربما إلى بيغولتزايم».

«فهمت... ومن الذي سيتولى القيادة؟»

«أنا، طبعاً، يا بابا».

«لابأس، يمكنك أن تذهب مع بيير. ولكن خذ العربة المقفلة والفرس الكميت. وانتبه لئلا يفرط في أكل الشوفان».

«أوه، أفضّل كثيراً أن آخذ العربة ذات الحصانين».

«آسف. عندما تكون وحدك، تستطيع أن تفعل ما يحلو لك. ولكن عندما يكون الصغير معك، فعليك أن تأخذ الكميت».

انسحب ألبرت، وقد أصيب بشيء من خيبة الأمل. ولو أن هذا حدث في وقت آخر لجادل وتوسل، لكنه وجد مرة أخرى أن الرسام شديد الإنهماك في عمله، وهنا في المحترف، وسط وهج لوحاته، كان والده، على الرغم من كل ما كان ينطوي عليه الفتى من رفض داخلي، مايزال يؤثّر فيه تأثيراً قوياً. وفي أي مكان آخر لم يكن يلاحظ أثر سلطان والده، أما هنا فكان يشعر بشكل يثير الشفقة أنه صبي صغير وضعيف أمامه.

سرعان ما غاص الرسام في عمله، ونسي أمر مقاطعته، وتلاشى العالم الخارجي. راح يقارن بتركيز مكثف بين اللوحة والصورة الحية الكامنة في داخله. شعر بموسيقا

الضوء، وكيف كان تدفقه الهادر يتبدد ومن ثم يتجمع من جديد، وكيف يفتر عندما يواجه مقاومة، كيف يُمتصّ ولكنه يعود من جديد ليتغلب بشكل لايقهر عند كل سطح منفتح، وكيف يعبث بالألوان بحساسية نزوية ولكنها دقيقة دقة لاتشوبها شائبة، سليمة على رغم ألف انكسار وكان في كل تمعجاته العابثة وفياً بلا مواربة لقانونه الفكري. وكان يستنشق نسيم الفن المسكر باستمتاع، استمتاع مرّ لمبدع عليه أن يهب نفسه حتى حافة العدم، ولايجد سعادة الحرية المقدسة إلا في الانضباط الصارم الذي يكبح كل نزوة ولا يفوز بلحظات الإنجاز إلا من خلال الإذعان الزهدي لحسه بالحقيقة.

كان وضعاً غريباً ومحزناً، ولكنه ليس أشد غرابة من المصير الإنساني برمته: إن هذا الفنان المنضبط، الذي استمدَّ طاقته على العمل من عمق صدقه ومن تركيز صرف عنيد، هذا الرجل نفسه الذي لامكانٍ في محترفه لنزوة أوشك، كان في حياته مجرد هاو، فاشلاً في بحثه عن السعادة، وكان، هو الذي لم يُخرِج قط رسماً أو لوحة زيتية ينقصها الاتقان إلى العالم يعاني أيما معاناة وهو رازح تحت الثقل الشرير لعدد لاحصر له من الأيام والسنين المضطربة، والمحاولات المخفقة في الحب وفي الحياة.

هذا ما لم يكن يدركه. ظل سنين طويلة لايشعر بحاجته إلى أن يرى حياته بوضوح. لقد تألم وقاوم الألم تمرداً وإذعاناً، بيد أنه كان قد اعتاد على ترك الأمور تسير على هواها وأن يوفر نفسه لعمله وقد نجح تقريباً، بعناد شرس، في أن يزود فنه بالغنى، والعمق، والدفء التي افتقدتها

حياته. والآن، وهو مطوق بعزلته، أصبح مثل شخص مفتون ومنضفر في هدفه الفني وفي صناعته العنيدة، وهو من الصحة والتصميم ما يمنعه من أن يرى أو يميِّز جدب مثل هذه الحياة.

هكذا كان الحال حتى وقت قريب، إلى أن هزت زيارة صديقه كيانه كله. ومنذ ذلك الحين والرجل المنعزل يعايش نذير حلول قدر خطر وشيك، وصراعات ومحاكمات يعجز كل فنه وصناعته عن انقاذه منها. لقد شعر وهو وسط إنسانيته المدمرة أن ثمة عاصفة تتجمع وأنه يفتقر إلى الجذور وإلى القوة الداخلية لمجابهتها. وقد اعتاد وهو في عزلته وببطء شديد على الاعتقاد أن عليه أن يجرع كأس الآلام حتى الثمالة.

كان الرسام، وهو يدفع عنه هذه النذر القاتمة، ويعيش خوف اتخاذ القرارات أو حتى تكوين أفكار واضحة، كان يستجمع كل طاقاته وكأنما لبذل آخر مجهود عظيم، تماماً كما يجند حيوان مُلاحق كل ذرة من طاقته للقيام بالقفزة التي ستنقذ حياته. وهكذا، خلال أيام المعاناة الداخلية تلك، أبدع يوهان فيراغوث، وبجهد يائس، أحد أعظم وأجمل أعماله، الذي يصور الطفل اللاهي بين قامتي والديه المنحنيتين والمثقلتين بالحزن. وعلى السوية نفسها ويشملهما الجو والضوء نفساهما، يقف الرجل والمرأة يمثلان الموت وأقسى برودة، بينما الطفل بينهما، أشقر متهللاً، يومض وكأنما يسطع بنوره الخاص البهيج. وعندما عدّه بعض المعجبين به، وخلافاً لرأي فيراغوث المتواضع، من بين العظماء بحق، فذلك يعود إلى حد كبير إلى هذه اللوحة التي بث فيها كل

معاناة روحه، علىالرغم من انه لم يكن يرمي إلى أكثر من أن تكون قطعة من الحرفيّة المثالية.

خلال تلك الأوقات لم يعرف فيراغوث شيئاً من الضعف والخوف، من المعاناة، والإحساس بالذنب، والفشل في الحياة. كان لا هو بالمبتهج ولا بالحزين، ينهمك بكليته في عمله، ينفث هواء العزلة الخلاقة القارس، لايشتهي أي شيء من العالم الذي نسيه. وبسرعة وثقة، برزت عيناه من عزم التركيز، وأقحم اللون بضربات صغيرة حادة، مضفياً على الظل عمقاً أكبر، وجعل ورقة النبات المتمايلة على خصلة عابثة من الشعر تتأرجح بمزيد من الرقة والحرية وسط النور. ولم يكن يفكر فيما تعبّر عنه اللوحة. كان ذلك آخر ما يفكر فيه؛ لقد كانت مجرد فكرة، وحي؛ والآن هو ليس مهتماً بالمعاني، أو بالمشاعر، أو بالأفكار، وإنما بالحقيقة الصرف. وقد تمادى كثيراً إلى درجة أن يخفف بل وكاد يطمس التعبير المرتسم على الوجوه، لأنه لم يكن يرغب في أن يحكي حكاية؛ فطيّة ثوب متجمعة حول ركبة كانت مهمة بالنسبة إليه ومقدسة مثل جبين منحني أو فم مغلق. لقد كان الغرض في اللوحة أن لاتُظهِرَ إلا ثلاثة أشكال إنسانية تبدو كمجرد أشياء محضة، يصل فيما بينها الفراغ والأثير، ومع ذلك فكل منها محاط بهالة فريدة تفصل كل صورة مرئية بعمق عن عالم العلاقات المتنافرة وتبعث رعشة الدهشة لضرورتها المحتومة. وهكذا يطل علينا، من رسوم الأساطين الغابرين، أشخاص غرباء أحجامهم أكبر من المعتاد لانعرف أسماءهم ولانرغب في معرفتها، ينظرون إلينا بإبهام بوصفهم رموز الوجود كله.

لقد كانت اللوحة متقدمة كثيراً عن زمنها، وتكاد تكون

كاملة. وكان قد ترك وضع اللمسات الأخيرة على الشكل الرائع للطفل حتى المرحلة الأخيرة؛ وسوف يضعها في الغد أو بعد غد.

عندما شعر الرسام بالجوع ونظر في ساعة يده وجد أن وقت الغداء كان قد فات منذ وقت طويل. فاغتسل على عجل، وارتدى ملابسه، وتوجه إلى منزل العزبة، حيث ألفى زوجته جالسة وحدها على طاولة المائدة، تنتظر.

سألته مندهشة: «أين الصبيان؟»

«ذهبا في نزهة بالعربة. ألم يمر ألبرت عليك؟»

عندئذ فقط تذكر زيارة ألبرت له. وباشر تناول الطعام وهو شارد الذهن بعض الشيء ومرتبك. وأخذت فراو أديل تراقبه بضجر وشرود وهو يقطع اللحم. لقد كانت قد يئست من مجيئه. وترك التوتر الذي يتحكم في قسماته لديها ما يشبه إحساساً بالتعاطف. وراحت تخدمه بصمت وتصب له النبيذ، وقد بذل هو، لما شعر ببرود غامض، مجهوداً ليقول شيئاً لطيفاً.

سألها: «هل يسعى ألبرت إلى أن يغدو موسيقياً؟ أعتقد أنه يتمتع بقدر وافر من الموهبة».

«نعم، هو موهوب. ولكن لا أدري إن كان قد خُلق ليكون فناناً. لا أعتقد أنه يريد أن يغدو كذلك. حتى الآن لم يُبدِ كثيراً من الحماس نحو أية مهنة، إن مثله الأعلى هو أن يصبح ما يشبه الجنتلمن ينخرط في ممارسة أنواع الرياضة وإجراء الدراسات، في الحياة الاجتماعية وفي الفن في وقتٍ واحد. ولا أفهم كيف يمكنه أن يكسب لقمة عيشه بهذه الطريقة، يجب أن أوضح له هذه النقطة بالتدريج. وفي الوقت نفسه هو يعمل

بجد وسلوكه حسن، ولا أرغب في أن أزعجه أو أسبب له القلق بلا داع. إنه يريد أن يؤدي خدمته العسكرية أولاً، على أية حال، بعد أن يتخرج من المدرسة. وبعد ذلك، سنرى».

لم يفه الرسام بأي كلمة. وقشّر موزة وأخذ يستمتع بشم العبير الخفيف، المغذي للفاكهة الناضجة.

أخيراً قال: «إذا لم يكن لديك مانع سأتناول قهوتي هنا، كانت نبرة صوته ودية، مُراعية، ومرهقة قليلاً، وكأنما يهدّئ من سريرته أن يمكث هنا ويستمتع بشيء من الراحة».

«سوف آمر بإحضارها إلى هنا - أكنت ترهق نفسك بالعمل؟»

أفلتت منها هذه الجملة عفو الخاطر. لم تقصد من ورائها أي شيء؛ إذ لما كانت تلك لحظة انسجام غير عادية، فقد رغبت من أن تبدي قليلاً في الاهتمام، وهذا ليس سهلاً، لأنها فقدت تلك العادة.

أجابها زوجها بجفاف: «نعم، كنت أرسم منذ بضع سنوات».

أزعجه أن تسأل. لقد أصبح من المتعارف عليه بينهما أن لايتكلم عن عمله، حتى أن هناك العديد من رسوماته الأحدث عهداً لم تقع عينها عليها.

شعرت أن اللحظة البراقة تنصرم ولم تفعل شيئاً للإمساك بها. وفقد هو، الذي كان لتوه قد مدّ يده لأخذ علبة السجائر وهمّ بطلب الإذن بالتدخين، الرغبة في ذلك وترك يده تنخفض.

لكنه أتم شرب قهوته دون عجلة، وطرح سؤالاً عن بيير، وشكر زوجته بأدب، وتريث بضع دقائق أخرى، متأملاً لوحة

صغيرة كان قد أعطاها قبل بضع سنوات.

قال، وكأنه يكلم نفسه: «لقد صمدت فترة لابأس بها. لازالت تبدو جميلة جداً. فيما عدا الأزهار الصفراء، ما كان يجب أن تكون موجودة، إنها تستقطب الكثير من الضوء».

لم تحر فراو فيراغوث بجواب؛ فقد تصادف أن كانت الأزهار الصفراء الرقيقة، المرسومة بشكل رائع، هي أفضل ما كان يعجبها في اللوحة.

التفت وراءه وشبح ابتسامة يرتسم على شفتيه «وداعاً؛ لاتدعي الوقت يخيم بثقله كثيراً عليك حتى عودة الولدين».

ثم غادر الغرفة وهبط الدرج. وفي الخارج، قفز الكلب عليه، فأمسك بمخلبيه بيده اليسرى، ومسّد عليه بيده اليمنى، ونظر في عينيه المتلهفتين. ثم نادى عبر نافذة المطبخ طالباً قطعة من السكر، وأعطاها للكلب، وألقى نظرة على المرج المشمس، مضى بخطى بطيئة عائداً إلى المحترف. كان نهاراً صافياً يغري بالخروج من المنزل، والهواء رائعاً؛ ولكن وقته كان ضيقاً، والعمل ينتظره.

هناك كانت اللوحة قائمة في وسط الضوء الهادئ المنتشر في المحترف العالي. على سطح أخضر مرقش ببضع أزهار برية جلس الأشخاص الثلاثة؛ الرجل منحن، مستغرق في تفكُّر حزين يائس، والمرأة تنتظر بلا مبالاة مذعنة كئيبة، والطفل مشرق وبريء، يلعب بين الأزهار؛ وعلى الجميع يسطع ضوء حاد، متذبذب، يتدفق بانتصار، يتلألأ والدفء البهيج نفسه يشيع في كل زهرة كما في شعر الصبي المضيء وفي الحلية الذهبية الصغيرة على نحر المرأة المغمومة.

9

ظل الرسام يعمل حتى اقتراب المساء. وعندما أنهكه التعب، جلس بعض الوقت في كرسيه، يداه في حجره، وهو مستنزف تماماً، وجنتاه متراخيتان وجفناه ملتهبان قليلاً، عجوز ويكاد يكون هامداً، مثل فلاح أو قاطع خشب بعد بذل جهد مضن.

كان يفضل أن يلزم كرسيه ويستسلم لارهاقه وتوقه إلى النوم. لكن العادة والانضباط الصارم منعاه من ذلك؛ وبعد مضي عشر أو خمس عشرة دقيقة انتفض مستيقظاً. ونهض واقفاً وبدون أن يلقي حتى نظرة سريعة إلى اللوحة هبط إلى منبسط الدرج، وخلع ملابسه، وراح يسبح ببطء حول البحيرة.

كانت أمسية شاحبة بلون الحليب؛ وكان بالإمكان سماع صوت صرير العربات المحملة بالتبن والصراخات المرهقة وضحك العاملين في المزرعة لدى عودتهم من عملهم اليومي، يمكن سماعها، وقد كظمتها الغابة، من الطريق القريبة. وخرج فيراغوث وهو يرتعش من الماء، وجفف نفسه بعناية حتى سرى فيه الدفء، ثم ولج إلى غرفة جلوسه الصغيرة، وأشعل سيجاراً.

كان قد خطط ليكتب رسائل هذا المساء، ففتح درج طاولة مكتبه بدون اقتناع، لكنه عاد فأغلقه بنزق ورن الجرس

مستدعياً روبرت.

وظهر الخادم.

«قل لي، متى عاد الولدان مع العربة؟»

«إنهما لم يعودا، هر فيراغوث».

«ماذا، ألم يعودا بعد؟»

«كلا، هر فيراغوث. آمل فقط في أن لايكون هر ألبرت قد بالغ في إرهاق الفرس الكميت. إنه يميل قليلاً إلى القسوة على الجياد».

لم يجب سيده. كان يود أن يقضي نصف ساعة مع بيير، الذي اعتقد أنه عاد منذ وقت طويل. أما الآن فقد تولاه الغضب وفزع قليلاً من سماع الخبر.

هرع منتقلاً إلى منزل العزبة وقرع على باب زوجته. كان في ردِّها دهشة، فلم يقم قط بزيارتها في مثل تلك الساعة.

قال، وهو يكبح اضطرابه: «عذراً، ولكن أين بيير؟»

نظرت فراو أديل إلى زوجها مندهشة: «الصبيان ذهبا في نزهة بالعربة، ألا تذكر؟»

ولما أحست باضطرابه، أضافت: «لا أظنك قلقاً؟»

هز كتفيه بصبر نافد «كلا، ولكن هذا تهور من ألبرت. لقد قال، بضع ساعات. كان في وسعه على الأقل أن يتصل بالهاتف».

لكن الوقت مازال مبكراً. سيعودان حتماً قبل موعد العشاء.

إن الصغير دائماً يغيب عندما أرغب في قضاء بعض الوقت معه.

لا أرى داعياً للقلق، إن مثل هذه الأمور تحدث. وبيير يقضي الكثير من الوقت معك.

عضّ على شفتيه وغادر دون أن ينطق كلمة واحدة.. إنها على حق، ولا داعي للقلق، لا داعي للإنفعال ولطلب أي شيء في الوقت الحاضر. ومن الأفضل أن ألتزم الصبر واللامبالاة كما تفعل هي.

هبط، غاضباً إلى الطابق السفلي وخرج من البوابة إلى الطريق. كلا، لايريد أن يتعلم هذا الأسلوب، إنه يريد فرحه هو وغضبه هو. كم أثبطت هذه المرأة لتوها همته، كم أصبح معتدلاً وعجوزاً، هو الذي كان في السابق يقضي أياماً طويلة سعيدة في القصف والمرح وحتى ساعة متأخرة من الليل ويحطم الكراسي في نوبات الغضب. ثار فيه كل إحساس بالمرارة والامتعاض، وفي الوقت نفسه شعر باشتياق شديد للصبي، الذي كان في إمكان صوته ونظرته وحدهما أن يشيعا فيه الفرح.

راح يقطع الطريق بخطى واسعة. وسمع صوت جري دواليب فأخذ يحث خطاه متلهفاً. ولكن لاشيء. إنه فلاح يقود عربة ملأى بالخضراوات. فناداه فيراغوث، «هل مررت بعربة مقفلة يجلس على صندوقها صبيان؟».

هز الفلاح رأسه نفياً دون أن يتوقف، وتابع حصان المزرعة عدوه المتئد مقرقعاً لامبالياً حتى غيّبه المساء الرخي.

شعر الرسام وهو يواصل مسيره بغضبه يبرد ويتسرب منه وأصبحت خطاه أكثر ارتياحاً، وساده إرهاق مهدّئ، وبينما هو يتقدم بخطى واسعة سهلة، استقرت عيناه بامتنان على امتداد الريف الغني والهادئ، المترامي شاحباً ورخياً تحت ضوء المساء السديمي.

حين اقتربت عربة ولديه منه، بعد أن سار نحو نصف ساعة، كان قد كف تقريباً عن التفكير فيهما. ولم تلفت انتباهه إلا بعد أن اقتربت منه. وعندما ميّز وجه ألبرت، تراجع، غير راغب في أن يرياه ويناديا عليه.

كان ألبرت جالساً وحده على الصندوق، أما بيير فجلس مسترخياً في ركن العربة، وقد تدلى رأسه العاري وبدا كأنَّهَ نائم. وهدرت العربة مارة به وتابعها الرسام بنظره، وهو واقف على جانب الدرب المترب حتى اختفت عن الأنظار. ثم استدار وقفل عائداً. كان يود أن يرى بيير، ولكن كاد يحين موعد نوم الطفل ولم يرغب فيراغوث في أن يرياه في منزل زوجته في ذاك اليوم.

هكذا، تابع طريقه، متجاوزاً الأرض الرحبة، والمنزل والبوابة، إلى داخل البلدة، وهناك تناول طعام العشاء في حانة وتصفح الصحف.

في ذلك الحين كان ولداه قد وصلا إلى البيت منذ وقت طويل وجلس ألبرت إلى أمه، يحكي لها عن النزهة. وكان بيير شديد التعب ولم يرغب في تناول طعام العشاء، وخلد إلى النوم في غرفة نومه الصغيرة الجميلة. وعندما مرَّ والده بالبيت في طريق عودته إلى منزله، لم ير أي ضوء. وكان الليل المنعش، الخالي من النجوم يكتنف الأرض الرحبة، والبيت

الكبير، والبحيرة والسكينة الظلماء، وانهمرت حبات دقيقة، ناعمة، من المطر من الهواء الراكد.

أضاء فيراغوث غرفة جلوسه وجلس إلى طاولة مكتبه. كان توقه الشديد إلى النوم قد تلاشى. فتناول صفيحة من ورق الرسائل وبدأ يكتب رسالة إلى أوتو بركهارت. وطارت فراشات صغيرة إلى الداخل من خلال النوافذ المفتوحة. كتب يقول:

صديقي العزيز:

لعلك لم تكن تتوقع أن تصلك رسالة مني بهذه السرعة ولكن بما إني أكتب الآن، فإنك بدون شك تتوقع أن تتلقى أكثر مما في مقدوري أن أعطي. أنت تعتقد أن صفاء الذهن قد هبط عليّ وأني الآن أرى الآلية المدمّرة لحياتي من مقطعها العرضي بدقة كما تعتقد أنك تراها. لسوء الحظ، ليس هذا هو واقع الأمر. نعم، منذ أن تحدثنا عن تلك الأشياء حدثت ومضات من بروق صيفية داخلي، وبين حين وآخر يحدق وحي شديد الإيلام إلى وجهي، لكن العجز لم يبزغ بعد.

إذن، كما ترى، لا أستطيع أن أقول ماذا سأفعل أولا أفعل لاحقاً. لكننا سنمضي معاً. سأرافقك إلى الهند، أرجو أن تجد لي مضجعاً حالما تعرف التاريخ. لا أستطيع أن أغادر قبل نهاية الصيف، ولكن في الخريف كلما أسرعنا كان أفضل.

أريد أن أعطيك اللوحة التي رأيتها هنا، التي تحتوي السمكتين، ولكن سيسرني لو أنها تبقى في أوروبا، إلى أين يجب أن أرسلها؟

هنا كل شيء كالمعتاد. ألبرت يمثل دور الجنتلمن

الراقي، لن تتخيل كم نتعامل مع بعضنا باحترام، كسفيرين لقوتين عدوتين.

قبل أن نغادر، أتوقع قدومك مرة ثانية إلى روسهالده. يجب أن أريك لوحة سوف تنتهي بين يوم وآخر، إنها عمل جيد، إنجاز جيد جدير بأن أختم به مسيرتي المهنية في حال التهمتني تماسيحك. وهو أمر، يجب أن أعترف، سوف يزعجني على الرغم من كل شيء.

يجب أن آوي إلى السرير الآن، على الرغم من أني لست ناعساً. اليوم جلست أمام حامل لوحتي على مدى تسع ساعات.

المخلص يوهان

عنون الرسالة ثم وضعها خارجاً في الصالة لكي يأخذها روبرت إلى مكتب البريد في اليوم التالي.

حين أطل الرسام من النافذة قبل أن يأوي إلى السرير سمع هسيس المطر الذي تجاهله أثناء قيامه بالكتابة. كان يهطل في هبات رقيقة من قلب الظلمة وظل وقتاً طويلاً يقظاً ينصت إليه يهطل في تيارات رنانة من أوراق الشجر المخضلة إلى التربة العطشى.

10

قال ألبرت لأمه وهما خارجان إلى الحديقة المنتعشة بالمطر لقطف الورد، إن بيير ممل جداً «إنه لايوليني الكثير من انتباهه طوال الوقت، ولكن بالأمس لم أتمكن من استخلاص أي شيء منه. وقبل بضعة أيام عندما اقترحت أن نذهب معاً في نزهة، امتلأ حماساً. ولكنه بالأمس لم يبد الكثير من الحماس للذهاب، وكدت أتوسل إليه. وأنا لم أتسل كثيراً، لأني لم أتمكن من أخذ الحصانين، وقد ذهبت في الواقع إكراماً له».

سألته فراو فيراغوث «ألم يكن حسن السلوك؟»

«أوه، كان مؤدباً جداً، لكنه ممل جداً. أحياناً يحيط به جو من السأم. ومهما اقترحت عليه أو أريته أو قدمت له، لا أحصل منه على ابتسامة أو حتى آه، نعم. فهو لايريد أن يجلس على الصندوق، ولايريد أن يتعلم كيف يمسك بالزمام، ولايريد حتى أن يأكل المشمش. إنه أشبه بأمير مدلل قليلاً. كان شيئاً مملاً؛ وأنا أخبرك بهذا لأني بحق لا أريد أن أصحبه معي بعد اليوم».

توقفت أمه لاتبدي حراكاً ورمته بنظرة ثاقبة؛ فلمعت عيناه سخطاً ولم تستطع أن تكبح ابتسامة سرور.

قالت تهدئه: «يا طفلي الكبير، يجب أن تتصف بالصبر

معه. لعله لم يكن على مايرام، إنه لم يأكل أي شيء تقريباً على مائدة إفطار هذا اليوم في الصباح. وهذا يحدث بين حين وآخر مع كل الأطفال، والأمر نفسه وقع معك. وهو ينتج عادة عن اضطراب في المعدة أو عن رؤية الكوابيس ليلاً، وكما أن بيير ضعيف البنية وحساس. ثم لعله غيور قليلاً. لاتنسى أنه في المعتاد يستأثر بي لنفسه، وها أنت هنا وعليه أن يتقاسمني معك».

«لكني في إجازة! وعليه أن يفهم هذا، إنه ليس غبياً!».

«إنه صغير يا ألبرت. وكل ما عليك أن تفعله هو أن تكون أكثر ذكاءً منه».

كان المطر مايزال يقطر من أوراق النبات النضرة، المتلألئة بتلألؤ براق، وكانا قد خرجا ليقطفا الورد الأصفر الذي كان ألبرت مولعاً به. فأحنى تيجان الشجيرات مباعداً ما بينها وقصَّت أمه بمقصها الخاص بالحديقة الأزهار التي كانت ما تزال تقطر قليلاً، وهي مثقلة بماء المطر.

سألها وهو مستغرق في التفكير: «هل كنتُ مثل بيير عندما كنتُ في مثل سنه الآن؟».

حاولت فراو أديل أن تتذكر. فأخفضت يدها التي تحمل مقص الحديقة الكبير، ونظرت في عيني ابنها ثم أغمضت عينيها، محاولة أن تستثير صورته وهو طفل.

«كنت تشبهه كثيراً فيما عدا العينين، لكنك لم تكن فارع الطول ونحيلاً، ثم أخذت تنمو بعد ذلك بقليل».

«والنواحي الأخرى؟ أقصد، شخصيتي».

«في الواقع، يا بني، أنت أيضاً كانت لك تقلبات في

المزاج. ولكن أعتقد أنك كنت أكثر استقراراً، فلم تكن تقفز من لعبة أو انهماك إلى آخر بالسرعة التي تحدث مع بيير. ثم إنه أكثر انفعالاً مما كنت أنت، وليس متوازناً أيضاً».

أخذ ألبرت المقص الكبير من يد أمه وانحنى فوق شجيرة ورد. قال بهدوء: «هناك الكثير من صفات بابا في بيير. أليس غريباً، يا أمي، كيف تتكرر صفات الأباء والأجداد، أو مزيجاً منها، في الأولاد؟ إن أصدقائي يقولون إن كل طفل يحمل كل العناصر الأولية التي ستعمل على تشكيل حياته كلها، وإنه لاحيلة لنا في ذلك، بل عاجزون تماماً. فمثلاً إذا كان أحدهم يحمل عوامل تكوين لص أو قاتل، فلا حيلة له في ذلك، فسوف يغدو مجرماً قاتلاً حتماً. شيء رهيب. ألا تصدقين هذا؟ إنه حقيقة علمية بحتة».

ابتسمت فراو أديل «ربما. فعندما يصبح شخص لصاً أو قاتلاً، فقد يتمكن العلماء من إثبات أنه كان دائماً يحمل هذه الصفة فيه. لكني واثقة من أن هناك الكثير من المستقيمين الخيرين ورثوا الكثير من نواحي الشر من والديهم وأجدادهم وظلوا مع ذلك خيرين، لكن العلم لايحسن كثيراً الاستقصاء حول هذا. أنا أقول إن الوداد والتنشئة الحسنة يعوَّل عليهما أكثر من الوراثة. كلنا يعرف ما الخير وما الحق، أو في إمكاننا أن نتعلمهما، وهذا ما علينا أن نهتدي به. لا أحد يدري بالضبط أي ألغاز وراثية يحمل أي إنسان في داخله، ومن الأفضل أن لانغالي في القلق بشأنها».

كان ألبرت يعلم أن أمه لاتقحم نفسها قط في نقاشات جدلية، وشعر غريزياً بأن ردة فعلها الساذجة كانت صحيحة. غير أنه كان يعلم أن تلك ليست آخر كلمة تقال حول الموضوع

المخيف، وكان يود أن يقول شيئاً حاسماً حول نظرية المصادفة، التي كانت تبدو له مقنعة تماماً عندما يتحدث بعض أصدقائه عنها. وفتش عبثاً عن صيغ واضحة، ملزمة، على الرغم من أنه ـ خلافاً عن أصدقائه، الذي كان مع ذلك يكن لهم الإعجاب ـ شعر أنه يميل أكثر بكثير في قلبه إلى اتخاذ موقف أخلاقي وجمالي منه إلى وجهة النظر الموضوعية العلمية، التي أعلن تبنيها بين أقرانه الطلاب. وفي النهاية ترك الأمر عند هذا الحد، والتفت إلى قطف الأزهار.

في تلك الأثناء، كان بيير، الذي كان في الحقيقة متوعكاً وتأخر أكثر من المعتاد في الاستيقاظ من النوم وهو فاتر الهمة، كان قد لزم غرفته مع ألعابه إلى أن بدأ يشعر بالملل. لقد كان بحق في حال مزرية، وبدا له أنه يجب أن يستجدّ شيئاً خاصاً ليحول هذا اليوم الباهت إلى مقبول وأكثر إمتاعاً بقليل.

غادر المنزل، متردداً بين التوقع والشك، وتوجه إلى أيكة الزيزفون بحثاً عن شيء جديد، عن اكتشاف ما أو مغارة. كان ينتابه إحساس مقبض في معدته؛ وقد حدث له ذلك من قبل، ولكن لم يشعر قط بمثل ذاك التعب الشديد والثقل في رأسه. وكان يود لو يهرع إلى أمه. يبكي عندها. لكن ذلك كان مستحيلاً في حضور أخيه الأكبر المتكبر، الذي يعمل دائماً، حتى في الأيام العادية، على التنويه بوضوح إلى أنه مازال طفلاً صغيراً.

ليت يخطر لأمه أن تفعل شيئاً، أن تنادي عليه وتقترح الاشتراك في لعبة ما وأن تلاطفه. لكنها طبعاً ذهبت مرة

أخرى مع ألبرت. وشعر بيير أن ذاك يوم شؤم، ولا أمل يرجى منه.

أخذ يسير بخطى وئيدة، فاتر الهمة ومغتماً، على الدروب المحصّاة، يداه في جيبيه، ويمضغ سويقاً ذابلاً لزهرة زيزفون. وقد ساد الحديقة الرطوبة وبرودة الصباح وكان للسويق طعم مرّ، فبصقه وتوقف في مكانه، وهو في أسوأ حالة نفسية. كان عاجزاً عن التفكير في أي شيء، واليوم شعر إنه لا بالأمير ولا بقاطع طريق، لا صاحب معدّية ولا بنّاء.

أخذ يتلفت فيما حوله، عابساً، يلكز الحصى برأس حذائه، ويرفس حلزوناً لزجاً رمادي اللون عن الدرب إلى العشب الرطب. لاشيء قادر على التحدث معه، لاطائر ولا فراشة، لاشيء يبتسم له ويسليه حتى يدخل المرح إلى قلبه. كل شيء صامت، كل شيء يبدو رتيباً ولارجاء منه. وتذوق حبة كشمش حمراء لامعة صغيرة قطفها من أول شجيرة مرّ بها؛ فكان مذاقها بارداً وحامضاً. وقال في نفسه، سيكون ممتعاً لو يتمدد على الأرض ويستغرق في النوم ولايستيقظ إلى أن يعود كل شيء جديداً وجميلاً وسعيداً. لافائدة في تنقله هكذا دون هوادة، يفاقم بؤسه وينتظر ما لن يتحقق. فما أمتع مثلاً، أن تنشب حرب وتظهر أعداد غفيرة من الجنود الخيالة على الطريق، أو لو تندلع النيران في بيت ما من مكان ما أو أن يحدث فيضان جارف. آه، إن مثل هذه الأمور لا تحدث إلّا في الكتب المصورة، أما في الحياة الواقعية فلا تراها أبداً، ولعلها غير موجودة أصلاً.

تابع الطفل سيره المتئد، وهو يتنهد مكروباً، وقد انطفأ

الضياء من وجهه الوسيم، الحسن التقاسيم. وعندما سمع صوتيّ ألبرت وأمه من خلف التعريشة، كان من شدة الغيرة والحقد حتى أن الدموع تصاعدت إلى عينيه. فاستدار وابتعد بهدوء شديد، مخافة أن يسمعاه ويناديا عليه. ولم تكن به رغبة في أن يجيبهما، ولم يكن يريد أن يدفعه أحد إلى أن يتكلم ويقف منتبهاً ويكون مؤدباً. إنه في أسوأ حال ولا أحد يهتم به، حسن إذن، إنه يريد على الأقل أن يستمتع بعزلته وحزنه وأن يشعر أنه بائس حقاً.

تذكر الله، رب السموات، الذي كان أحياناً يجلّه أيما إجلال؛ وكان التفكير به يجلب له خفق ضعيف من الراحة والدفء، لكنه كان سرعان ما يتلاشى. لعل الله رب السموات بدوره زائف. ومع ذلك، كان سيسره كل السرور، الآن أكثر من أي وقت مضى، أن يجد من يعتمد عليه، شخصاً لديه شيء سار ومواسٍ ليقدمه.

ثم فكر في والده. فكر، وكله أمل، في أنه ربما سيفهمه والده، لأنه هو نفسه كان عادة يبدو ساكناً ومشدوداً وتعيساً. لاشك في أن والده سيكون واقفاً في محترفه الفسيح الهادئ، يرسم لوحاته. هو دائماً يفعل ذلك. ولم تكن فكرة إزعاجه جيدة حقاً. لكنه منذ وقت قريب جداً كان قد قال إن على بيير أن يأتي دائماً لزيارته كلما شعر برغبة في ذلك. لعله نسي، فالكبار دائماً ينسون وعودهم بسرعة كبيرة. ولكن لابأس في القيام بمحاولة. لابأس، حتماً، ما دام لايخطر في باله أي طريقة أخرى للسلوى وكان في أمسّ الحاجة إلى واحدة.

سار ـ ببطء أولاً، ثم، مع ازدياد الآمال، بمزيد من الرشاقة ـ في الدرب المظلل قاصداً المحترف. وضع يده على

سقاطة الباب ووقف لايأتي بحركة، وأنصت. نعم، والده في الداخل، يستطيع أن يسمعه يتنفس ويتنحنح، وسمع تكّة مقابض الفراشي الخشبية المرهفة التي يستعملها بيده اليسرى.

ضغط بحذر على السقاطة، وفتح الباب بدون أن يحدث صوتاً، ونظر إلى الداخل. تراجع أمام الرائحة النفاذة للتربنتين، والورنيش، لكن بنية جسم والده المربوعة القوية استنهضت الأمل فيه. ولج بيير إلى الداخل، وأغلق الباب وراءه.

لدى سماعه تكة سقاطة الباب، ارتجف كتفا الرسام العريضان اللتان كان بيير يراقبهما عن قرب. وأدار رأسه، وكان في عينيه الحادتين نظرة جريحة، متسائلة، وكان فمه فاغراً بتعبير مقيت.

توقف بيير لايحرك ساكناً. ونظر في عيني والده وانتظر. وعلى الفور أضحت العينان وديتين وزال التوتر عن وجه الرسام «يا ألله، مَنْ غير بيير! إننا لم نتقابل طوال اليوم. هل الماما هي التي أرسلتك؟»

هز الطفل رأسه نفياً وقبّله والده.

سأله والده بنبرة صوت ودية: «أتريد أن تمكث هنا قليلاً وتتفرج؟»». وعاد يستدير إلى لوحته ووجّه فرشاة صغيرة مدببة الرأس إلى نقطة معينة. كان بيير يراقبه. رأى الرسام يتفحص لوحته، رأى عينيه تحدقان بإمعان بل وبشيء من الغضب ويده المتوترة توجه الفرشاة، رآه يعبس ويعض على شفته السفلى. ثم اشتمّ جو المحترف الحريف الذي طالما مقته وكان مقته له خاصاً في ذاك اليوم.

تلاشى النور من عينيه وهو واقف بجوار الباب وكأنما قد شلَّ. إنه يعرف كل هذا، الرائحة وعينيْ والده وتكشيرات التركيز تلك،ويعرف أنه من الحمق أن يتوقع أن يكون هذا اليوم مختلفاً عن أي يوم آخر. إن والده يعمل، غارقاً في الأصباغ برائحتها الكريهة، وكل ما يهمه هو لوحاته السخيفة. لقد كان مجيئه فكرة حمقاء.

استولى الإحباط على قسمات وجه الصبي. لقد كان يعرف ما سيحدث طوال الوقت! لا ملجأ له، لا عند أمه، وحتماً ليس هنا.

ظل واقفاً برهة طويلة متبلداً وحزيناً، ينظر إلى اللوحة الكبيرة بألوانها الرطبة اللامعة، لكنه لم ير شيئاً. إن أبيه لديه وقت لهذا ولكن ليس له. ووضع يده على سقاطة الباب وضغطها إلى أسفل، ينوي أن ينسل إلى الخارج بهدوء.

لكن فيراغوث سمع الصوت الدال على الخوف. تلفت حوله، ودمدم ثم اقترب من الطفل. «ما الأمر، بيير؟ لاتهرب. ألا تريد أن تمكث هنا مع البابا قليلاً؟».

سحب بيير يده وأومأ برأسه بحركة واهنة.

سأله الرسام بحب: «أثمة ما تريد أن تقوله لي؟ هيا، سوف نجلس معاً. وسوف تخبرني. كيف كان مشوارك بالأمس؟»

قال بيير كما يجدر بطفل مؤدب «أوه، كان جميلاً».

مرر فيراغوث يده خلال شعر الطفل. ثم قال: «ألم يفدك؟ تبدو وكأنك ناعس، يا بني. أتراهم أعطوك بالأمس بعض النبيذ لتشربه؟ كلا؟ حسن، ماذا سنفعل الآن؟ هل نرسم؟»

«لا أرغب في هذا يا بابا. أشعر بوهن اليوم».

«أحقاً؟ لم تنم جيداً، هذا هو السبب. ما رأيك ببعض الرياضة البدنية؟»

هز بيير رأسه نفياً، ولارغبة لي في هذا. «أريد فقط أن أكون معك. لكن رائحة المكان هنا كريهة».

داعبه بيير وضحك. قال: «إنه لمن سوء الحظ أن لاتحب رائحة الدهان وأنت ابن رسام. أعتقد أنك لاتريد أن تصبح رساماً؟»

«كلا، لا أريد».

«وماذا تريد أن تكون؟»

«لاشيء. أفضّل أكثر شيء أن أكون طائراً أو ماشابه».

«لابأس بها من رغبة. ولكن قل لي، يا حبيبي، ماذا تريد مني. في الواقع، يجب أن أعمل على هذه اللوحة الكبيرة. إذا شئت، في إمكانك أن تبقى هنا وتلعب. أم هل أعطيك كتاباً مصوراً لتتفرج؟»

لا، ليس هذا مايريد. فقط يريد أن يذهب. قال إنه سيذهب ليطعم الحمام، ولم يفته أن يلاحظ أن والده قد ارتاح لرحيله. وأغلق والده الباب وعاد بيير وحيداً من جديد، شاعراً أنه أشد خواءً من ذي قبل. وسار متمهلاً يقطع أرض المرج، حيث من غير المسموح له أن يذهب، وقطف بشرود وحزن زهرة أو اثنتين. ولاحظ أن العشب الرطب قد ترك بقعاً على حذائه الخفيف المدبوغ وجعله أسود اللون، لكنه لم يأبه. وأخيراً، ارتمى وسط المرج، وقد غلبه اليأس، وأخذ ينشج وهو يدفن رأسه في العشب. لم يشعر بكُمّيّ البلوزة الخفيفة الزرقاء

اللون المنقوعين بالماء يلتصقان بذراعيه.

لم يهدأ إلا بعد أن بدأ يرتعش، وزحف يتملكه الخوف عائداً إلى المنزل.

بعد قليل سوف ينادون عليه؛ سوف يعرفون أنه كان يبكي، سوف يرون بلوزته المبللة، الوسخة، وحذاءه الرطب، وسيعنفونه. كلهم أعداؤه. وتسلل ماراً من أمام باب المطبخ، إنه لايريد الآن أن يقابل أحداً. وتمنى لو كان في مكان بعيد ناء حيث لايعرفه أحد ولايسأل أحد عن صحته.

ثم رأى المفتاح في باب أحد غرف الضيوف التي نادراً ما تُشغَل. فدخل وأغلق الباب؛ ثم أوصد النوافذ المفتوحة، وارتقى بدون أن يخلع حذاءه. وهو في حالة تعب مفرط، السرير الكبير الذي لم يكن مرتباً. واستلقى هناك مسربلاً بيأسه، يتقلب ما بين البكاء والنعاس. وعندما سمع، بعد مرور فترة طويلة، امه تنادي عليه من الفناء، لم يجبها بل طمر نفسه بعناد داخل الملاءة. وتردد صوت أمه رائحاً غادياً وأخيراً تلاشى؛ ولم يتمكن من إقناع نفسه بالرد. وأخيراً استغرق في النوم، وقد غسلت الدموع وجنتيه.

حالما قدم فيراغوث لتناول طعام الغداء، سألته زوجته: «ألم تُحضر بيير معك؟».

لم تفلت من انتباهه نبرة القلق في صوتها.

«بيير؟ لا أعرف أين هو. ألم يكن معكما أنتما الاثنان؟».

استولى الرعب على أديل؛ وارتفع صوتها. «كلا، أنا لم أره منذ ساعة الإفطار. وعندما بحثت عنه، قالت الفتيات أنهن شاهدنه وهو في طريقه إلى المحترف. ألم يذهب إلى هناك؟»

«نعم، كان هناك، لكنه لم يمكث إلا برهة، ثم هرع خارجاً، وقال بغضب: «ألا يوجد في هذا المنزل من يعتني بالصبي؟»

تضايقت فراو أديل، وقالت بجفاف: «ظننا أنه معك، سأذهب وأبحث عنه».

«أرسلي شخصاً آخر. طعام الغداء على المائدة».

«في إمكانك أن تباشر. أما أنا فسأبحث عنه».

هرعت تغادر الغرفة. ونهض ألبرت واقفاً وهمَّ باللحاق بها.

صرخ فيراغوث: «ألبرت، إبق مكانك، نحن على مائدة الطعام»، رماه الفتى بنظرة ملؤها الغضب، وقال بنبرة تحد: «سأتناول الطعام مع أمي».

نظر فيراغوث إلى وجهه المتورد وابتسم ساخراً: «حسن جداً. أراك أصبحت سيد المكان؟ وبالمناسبة، إذا كانت ما تزال بك رغبة في أن ترميني بمزيد من السكاكين، فلا تدع أية تحاملات سلفية تعيقك».

شحب لون وجه ألبرت ودفع كرسيه إلى الخلف. لقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يعيد فيها والده عمله الصبياني الناتج عن لحظة غضب إلى الذاكرة.

صرخ: «لايحق لك أن تكلمني بهذه الطريقة. لن أحتمل هذا!».

لم يرد فيراغوث عليه. التقط قطعة من الخبز وقضمها. وملأ كأسه بالماء وشربه ببطء، وقد صمم على أن يحتفظ

بهدوئه، وتظاهر بأنه لوحده. توجه ألبرت بخطى حائرة إلى النافذة.

صرخ مرة ثانية، وقد عجز عن كظم غضبه، «لن أحتمل هذا!».

رش والده ملحاً على خبزه. ورأى بعين عقله نفسه يستقل متن سفينة ويمخر عباب محيطات غريبة لانهاية لها، بعيداً عن هذه الفوضى العضال.

قال، تقريباً بسكينة : «لا عليك، أنا أعرف أنك لاتريدني أن أتحدث معك. حسن، فلنقفل الموضوع».

في تلك اللحظة سُمعت صرخة دهشة وسيل من الكلمات التي تنم عن الإثارة. لقد اكتشفت فراو أديل مكان اختباء الصبي. هرع الرسام خارجاً، وبدا أن كل شيء يسير على غير مايرام في ذاك النهار.

وجد بيير مستلقياً بحذائه الملطخ بالطين على سرير غرفة الضيوف المتغضن. كان وجهه ناعساً ومخضلاً بالدموع، وشعره شعثاً. وإلى جواره وقفت فراو أديل، عاجزة وسط رعبها.

أخيراً هتفت، يتنازعها القلق والغضب: «ولكن، يا ولدي، ماذا تفعل؟ لم لاتجيب؟ ولِمَ أنت مستلق هنا؟»

رفع فيراغوث بيير بين ذراعيه ونظر بقلق في عينيه الخاليتين من التعبير. وسأله بحنان: «أأنت مريض، يا بيير؟»

هز الولد رأسه في حيرة.

«أكنت نائماً هنا؟ أأنت هنا منذ وقت طويل؟».

قال بيير بصوت رفيع، خائف «لاذنب لي... أنا لم أفعل شيئاً... أنا فقط مصاب بصداع».

حمله فيراغوث إلى غرفة الطعام.

قال لزوجته: «أعطيه طبقاً من الحساء يجب أن تتناول شيئاً دافئاً، يا بني، سيجعلك تشعر بتحسن، وسوف ترى. أيها المسكين الصغير. لابد أنك مريض».

أجلسه، ودعم ظهره بوسادة، وتناول ملعقة، وأخذ يطعمه.

جلس ألبرت صامتاً ومتحفظاً.

كانت فراو فيراغوث، وقد شملها الارتياح كأم يسعدها أن تُبدي رعايتها للمرض أكثر من أن تستقصي حول سوء تصرف غير معهود.

راحت تواسيه «سوف نضعك في السرير بعد قليل، فقط كُل الآن، يا حبيبي».

كان لون وجه بيير رمادياً، وقد جلس نصف مغمض العينين وهو يزدرد بدون أن يبدي أي مقاومة ما يقدم إليه. وبينما كان والده يطعمه الحساء، كانت أمه تجس له نبضة واطمأنت حينما اكتشفت أنه ليس مصاباً بحمى.

سأل ألبرت بصوت متقلقل، وقد شعر أن عليه أن يفعل شيئاً «هل أستدعي الطبيب؟».

قالت أمه: «لا، لا عليك، إن بيير متوجه إلى السرير، وسوف ندثره جيداً حتى يدفأ. وسيمضي ليلة هانئة وفي الغد سيكون على أحسن ما يرام. أليس كذلك، يا ملاكي؟»

لم يكن الطفل منصتاً. وعندما حاول والده أن يعطيه المزيد من الحساء هز رأسه رافضاً.

قالت أمه: «لا، لا يجب أن يجبر نفسه. هيا بنا يا بيير، سوف نأوي إلى السرير وكل شيء سيكون على ما يرام».

أمسكت به من يده، فوقف ناعساً وتبع أمه. ولكنه توقف في الرواق، رسم تكشيرة، وانطوى على نفسه، وفي نوبة غثيان تقيأ كل ما كان قد تناوله.

حمله فيراغوث إلى غرفته وتركه في عهدة أمه. قُرعت أجراس وهرع الخدم صاعدين هابطين. تناول الرسام بضع لقم. وأثناء ذلك هرع مرة أو مرتين لعيادة بيير، الذي كان قد جُرِّد من ملابسه وغُسل ومُدِّد على سريره النحاسي. ثم عادت فراو أديل لتنقل له أن الولد قد هدأ، وأنه لايشعر بأي ألم ومن الواضح أنه بحاجة إلى النوم.

التفت فيراغوث إلى ألبرت، وقال: «ماذا أكل بيير بالأمس؟».

استجمع ألبرت ذاكرته، لكنه أدلى بجوابه إلى أمه: «لاشيء خاص. في بروكنسفاند أعطيته خبزاً وحليباً، ثم على الغداء في بيغولتزايم تناولنا شرحات ومعكرونة».

واصل الأب استجوابه، وقال: «ولاحقاً؟»

لم يرغب في تناول أي شيء. وبعد الظهر اشتريت له بعض المشمش من أحد البساتين. ولم يأكل إلا واحدة أو اثنتين.

«أكانت ناضجة؟»

«نعم، طبعاً. كأنك تعتقد أن اللوم يقع عليّ في اضطراب معدته».

رأت الأم هياج الولد فسألت: «مابكما أنتما الاثنان؟»

قال ألبرت: «لاشيء».

تابع فيراغوث: «أنا لا أعتقد أي شيء. أنا فقط أسأل. ألم يحدث أي شيء بالأمس؟ ألم يتقيأ؟ أو يقع؟ ألم يشتك من آلام؟»

أجاب ألبرت بـ «نعم» و «لا» جافة، وهو يتمنى من كل قلبه أن تنتهي هذه الوجبة.

لدى عودة فيراغوث إلى غرفة بيير، على أطراف أصابع قدميه، ألفاه نائماً. وكان وجهه الصغير الشاحب يتلبّس وقار الاستسلام التام للنوم المواسي.

11

في ذلك اليوم المتوتر بالقلق أكمل يوهان فيراغوث لوحته الكبيرة وبعد أن غادر الطفل المريض، وقد تملكه الفزع والاضطراب العميق، بات من الأصعب عليه بكثير أن يلملم أفكاره وأن يقبض على هدوء البال الأمثل الذي يعتبر سر قوته والذي كان عليه أن يدفع ثمنه غالياً لكن إرادته كانت قوية، وقد نجح، في بعد ظهر ذلك اليوم، وتحت الضياء المشرق الناعم، في وضع اللمسات الختامية على عمله.

عندما نحى جانباً ملْوَنهِ وجلس مواجهة اللوحة، شعر بتوحدٍ غريب. كان يعرف أن تلك اللوحة جيدة، وأنه قد أنتج عملاً رائعاً. لكنه من الداخل كان خاوياً، مستنزفاً. ولم يكن هناك من يعرض عليه عمله.

إن صديقه بعيد جداً، وبيير مريض، ولا أحد هناك غيرهما. وردود الفعل الوحيدة التي ستصله ـ من خلال الصحف والرسائل ـ هي تلك الصادرة عن عالم خارجي لامبال. إنها لاتعني له أي شيء، بل هي أقل من لاشيء؛ وفي لحظة كتلك، تكفي المرء نظرة سريعة من صديق أو قبلة من محبوب لتكافئه، لتمنحه السرور والقوة.

ظل بضع دقائق يحدق في صمت إلى اللوحة، التي كانت تتألق حيوية، بعد أن استهلكت طاقات الأسابيع القليلة

الماضية ومعظم ساعاتها.

أوه، حسن، سأبيعها، وسوف يغطي ثمنها تكاليف رحلتي إلى الهند، قال هذا بسخرية عزلاء. ثم أغلق أبواب محترفه وانتقل إلى دار العزبة لكي يسأل عن حالة بيير. فألفاه نائماً. وبدأ الطفل أفضل حالاً مما كان عليه وقت الغداء، لقد أعاد النوم الرونق إلى وجهه، وكان فمه نصف مفتوح، وقد فارقته سيماء العذاب واليأس.

همس لزوجته وهما في الرواق «ما أسرع ما يتجاوز الأطفال مثل هذه الظروف». فابتسمت بوهن ولاحظ أنها هي أيضاً قد أزاحت عبئاً ثقيلاً عن كاهلها، وأن قلقها كان أعظم مما بدا عليها.

لم يستسغ مجرد فكرة مشاركة طعام العشاء مع زوجته وألبرت. فقال «سأذهب إلى البلدة، ولن أكون هنا هذا المساء».

كان بيير هاجعاً في نومه الخفيف، فأظلمت أمه الغرفة وتركته.

حلم أنه يسير الهوينة في حديقة من الأزهار، وقد بدا كل شيء مختلفاً، وأكبر وأرحب بكثير من المعتاد؛ وسار وسار دون أن يصل إلى غاية. وكانت مساكب الأزهار أجمل ما رأت عيناه قاطبة، غير أن الأزهار كلها بدت زجاجية، كبيرة الحجم وغير مألوفة بشكل غريب، وكان كل شيء يومض بجمال حزين ميت.

أخذ يدور حول مسكب دائري من الشجيرات ذات الأزهار الكبيرة، في شيء من الضيق. وتشبثت فراشة زرقاء، بزهرة

بيضاء وأخذت تمتص رحيقها بهدوء. وكان يسود سكون غير طبيعي، ولم تكن الدروب محصّاة بل ناعمة الوطأة وكأنك تمشي على سجادة.

من الجانب الآخر لمسكب الزهور، اقتربت أمه باتجاهه، لكنها لم تره ولم تومئ إليه؛ بل كانت ترسل نظرة متجهمة وحزينة إلى الفراغ وتجاوزته دون أن تحدث أي صوت، وكأنها شبح.

بعد ذلك بقليل، وعلى درب آخر، شاهد والده، ومن ثم ألبرت. وهما أيضاً تابعا طريقهما، بصمت وتجهم، ولم يره أي منهما. كانا يتجولان، خاضعين لسحر ما، متيّبسين ومتوحّدين، وكأن الحال يجب أن يظل هكذا دائماً، وكأنما لن يومض أبداً بريق في عيونهما الثابتة أو ترتسم ابتسامة على وجهيهما وكأنما لن تهب أبداً دفقة صوت إلى هذا الصمت الصلد أو تلمس أرق النسمات الأوراق والأغصان الساكنة.

أما أسوأ ما في الأمر فكان أنه هو نفسه كان عاجزاً عن الصراخ. لم يكن ثمة ما يعيقه، ولا كان يشعر بألم، ولكن لم يكن يملك الشجاعة ولا رغبة حقيقية في الصراخ؛ لقد أدرك أن هكذا يجب أن يكون عليه الأمر، وأن الحال سيزداد فظاعة إذا هو تمرد.

تابع بيير طريقه ببطء خلال الجزء ذي الروعة الأقل حيوية من الحديقة. كانت هناك آلاف من الأزهار الرائعة تتلألأ وسط الجو الخامد البراق، وكأنها ليست حقيقية ولا حية. وكان بين حين وآخر يشاهد ألبرت أو أمه أو أباه، وكانوا دائماً يتجاوزونه ويتجاوز كل منهم الآخر بالصرامة الزائفة نفسها.

بدا له أن هذا ما يجري منذ زمن بعيد، ربما منذ سنين، وأن تلك الأزمان، عندما كان العالم والحديقة يعجان بالحياة، عندما كان الناس مرحين ويتسامرون وكان هو نفسه يطفح بالفرح والرعونة، بعيدة بعيدة في عمق الماضي السحيق. لعل العالم كان دائماً كما هو الآن، والحياة المبكرة ما هي إلا حلم لذيذ أحمق.

أخيراً وصل إلى حوض حجري صغير كان البستاني في السابق يملأ منه صفائح الري وحيث كان هو نفسه يحتفظ فيه بشراغفه الصغيرة القليلة. كان الماء الأخضر البراق يستقر راكداً، يعكس حافة الحجر والأوراق المدلاة من كتلة أزهار النجمة الصفراء. وبدا جميلاً، منبوذاً وتعيساً بشكل ما ككل شيء آخر.

قال البستاني مرة: «إذا وقعت هناك، تغرق وتموت؛ لكنه لم يكن عميقاً أبداً».

خطا بيير حتى حافة الحوض البيضاوي الشكل وانحنى إلى الأمام.

رأى وجهه منعكساً في الماء. كان وجهاً يشبه الوجوه الأخرى: عجوزاً وشاحباً ومتصلباً بالقساوة واللامبالاة.

أصيب بالدهشة والرعب، وفجأة فاض الرعب السري والحزن المبهم اللذان يكتنفان حالته حتى غمراه. وحاول أن يصرخ، ولكن لم يكن هناك صوت. أراد أن ينوح، ولكن كل ما استطاع أن يفعله هو أن يقطب ما بين حاجبيه ويكشر عجزاً.

ثم عاد أبوه إلى الظهور والتفت بيير إليه، وهو يحاول يائساً أن يستجمع كل قواه. أخذ يجهش في صمت، وتوجه

بكل مافي قلبه اليائس من أسى ومعاناة، إلى والده طلباً للعون. اقترب والده بجمود كشبح ومرة أخرى بدا أنه لايراه.

حاول الطفل أن يصرخ: أبي! وعلى الرغم من أنه لم يصدر أي صوت، إلا أن عزم محنته الرهيبة وصلت إلى الرجل الصامت، المتوحِّد. وأدار والده وجهه ونظر إليه.

حدق بإمعان، بنظرة الرسام المتفحصة، إلى العينين المتوسلتين، وابتسم بوهن، وأومأ إيماءة صغيرة؛ وكان في نظرته رقة وندم ولكن لاعزاء، وكأنما لايمكن عمل أي شيء. وعبر وجهه الصارم برهة قصيرة شبح حب ومعاناةٍ أسريّة، وخلال تلك البرهة القصيرة لم يعد ذاك الأب المفعم بالقوة، وإنما مجرد أخ مسكين عاجز.

عاد من جديد ينظر أمامه ومضى في طريقه بالخطى البطيئة المنتظمة نفسها.

تابعه بيير وهو يبتعد ثم يختفي، وخيم الظلام على الحوض والدرب والحديقة أمام عينيه المملوءتين بالرعب واختفوا كما السحب الضبابية. واستيقظ مع ألم في صدغيه وحنجرة محمومة وجافة ووجد أنه مستلق على سرير وحده وسط غرفة مظلمة. حاول وهو في حالة ذهول أن يستعيد ما جرى، لكنه لم يتذكر أي شيء. ولما شعر بالإرهاق وبالتثبيط، تقلب على الجانب الآخر.

عاد إليه الوعي الكامل ببطء. عندئذ زفر زفرة ارتياح. ما أبشع أن يكون مريضاً ومصاباً بالصداع، لكن الوضع محمول؛ إنه خفيف الوطأة ولذيذ إذا ما قورن بالإحساس المميت للكابوس.

قال بيير في نفسه، ما نفع كل هذا العذاب، ثم تكوّر على شكل كرة تحت ملاءته. ما فائدة المرض؟ إذا كان عقاباً ـ فلمَ يعاقبَ؟ إنه حتى لم يأكل أي طعام محرَّم ـ كما كان حدث ذات مرة، عندما أفسد معدته بأكل خوخ فج. لقد كان محرَّماً، لكنه أكله مع ذلك، ونال جزاءه وكان عليه أن يتحمل النتائج. لقد كان ذاك واضحاً، والآن؟ ما سبب استلقائه على السرير الآن، لمَ كان عليه أن يتقيأ، ولمَ يعاني ألماً ممضاً في رأسه؟

عندما دخلت أمه الغرفة كان مستيقظاً منذ وقت طويل. فأزاحت الستارة وغمر الغرفة ضوء مسائي ناعم. كيف حالك يا حبيبي؟ هل نمت نوماً هادئاً؟

لم يجب. رفع عينيه، وهو مايزال مستلق على جنبه، ونظر إليها. ردت له النظرة بأخرى وهي مندهشة. لقد بدت عيناه متسائلتين ورصينتين بشكل غريب.

قالت في نفسها في ارتياح، لا حمى.

«أترغب في تناول شيء ما الآن؟»

هز بيير رأسه بوهن رفضاً.

«ألا تريد أن أحضر لك أي شيء؟»

قال بصوت خافت: «ماء».

أحضرت له الماء، لكنه لم يشرب إلا رشفة قليلة، ومن ثم عاد فأغمض عينيه.

فجأة دوى صوت البيانو من الغرفة المجاورة، مالئاً الغرفة بأمواج عاتية من الضجيج.

صرخ: «لا! لا! اتركيني وحدي!».

وضع كلتا يديه على أذنيه ودفن رأسه في الوسادة. تنهدت فراو فيراغوث وذهبت إلى غرفتها وطلبت من ألبرت أن يكف عن العزف. ثم عادت وجلست بجوار سرير بيير إلى أن غلبه النعاس من جديد.

في ذاك المساء كان جو المنزل ساكناً تماماً. لم يكن فيراغوث موجوداً، وكان ألبرت متذمراً لأنه ممنوع عليه أن يعزف على البيانو. لجأ الجميع إلى النوم باكراً. وتركت فراو فيراغوث باب غرفتها مفتوحاً لكي تسمع بيير إذا ما احتاج إلى أي شيء خلال الليل.

12

لدى عودة فيراغوث من البلدة في تلك الليلة، مرَّ متجاوزاً المنزل الكبير خلسة، منتبهاً إلى كل نافذة مضاءة، أو باب مفتوح، أو صوت ينبئه بأن عزيزه مايزال مريضاً ويتألم. ولما ألفى كل شيء هادئاً وهاجعاً شعر بخوفه كله يسقط عنه كسقوط ثوب ثقيل مبلل، وعندما أوى إلى فراشه كان يشعر بامتنان عميق. وقبيل أن يستغرق أخيراً في النوم، ابتسم لدى تفكيره في قلّة ما يتطلبه إدخال البهجة إلى قلب مكتئب. لقد تلاشى كل ما تسبب في عذابه وأثقل عليه، وكل عبء حياته الموحش المتبلِّد، أصبح خفيفاً ولا أهمية له بجانب تألمه المحب لأجل طفله، وما إن تراجع ذاك الشبح المظلم حتى ظهر كل شيء أكثر إشراقاً وبدت حياته كلها مقبولة.

في صباح اليوم التالي أفاق وهو مستبشر وتوجه إلى منزل العزبة في ساعة مبكرة على غير عادته. ولما وجد وهو ممتن أن بيير مايزال نائماً بسلام، تناول طعام إفطاره وحده مع زوجته ـ لم يكن ألبرت قد استيقظ بعد. لم يكن فيراغوث قد ظهر على مائدة فراو أديل في مثل هذه الساعة من سنين، لذا أخذت ترمقه بدهشة مرتابة وهو يطلب منها بنبرة صوت عادية ولكن بطلاقة وديّة فنجاناً من القهوة ويشاركها طعام الإفطار كما في الأيام الخوالي.

أخيراً لاحظ تقلقلها وأدرك مدى غرابة ظهوره في مثل ذاك الوقت من النهار.

قال، بصوت ذكّر زوجته بسنوات أفضل حالاً: «أنا غاية في السعادة لأن الصغير يبدو أنه يتعافى. وقد خطر لي للتو أني كنت قلقاً جدياً بشأنه.

وافقته قائلة: «نعم، بالأمس كنت منزعجاً بسببه».

أخذ يعبث بملعقة القهوة الفضية وألقى عليها نظرة تكاد تكون لعوباً، هي انعكاس خفيف لمرح صبياني ـ تفجر فجأة وانجلى سريعاً ـ كان إحدى الصفات التي أشد ما حبّبه إليها في عهد مضى؛ وهج ضعيف لم يرثه عنه غير بيير.

باشر قائلاً بمرح: نعم، إنه بحق لنعيم. والآن أستطيع أخيراً أن أناقش آخر خططي معك. أعتقد أنه يجب أن تصحبي كلا الصبيين وتذهبوا إلى سينت موريتز خلال هذا الشتاء لتقيموا هناك فترة طويلة.

أخفضت بصرها بحركة غير واثقة.

سألته: «وأنت؟ هل تنوي أن ترسم هناك؟»

«لا، أنا لن أرافقكم. سوف أدعكم وشأنكم فترة من الوقت، وأذهب في رحلة. إنني أخطط لمغادرة المكان في الخريف وأغلق المحترف. وسوف أمنح روبرت إجازة. ولك مطلق الاختيار، في إمكانك أن تقضي فصل الشتاء في روسهالدة إن شئت. ولا أنصحك بهذا. والأفضل أن تذهبي إلى جنيف أو باريس، ولاتنسي سينت موريتز، فسوف يفيد المكان لبيير».

رفعت نظرها إليه، وقد ارتبكت. قالت غير مصدقة: «أنت تمزح».

قال وهو يرسم ابتسامة شبه كئيبة «أوه، لا. لقد غيرت هذه العادة. أنا جاد ويجب أن تصدقيني. أنا ذاهب في رحلة بحرية. سوف أغيب بعض الوقت».

«رحلة بحرية؟»

حاولت جاهدة أن تلملم شتات أفكارها. إن اقتراحاته، وتلميحاته، ونبرة صوته المرحة ـ كل هذا غير اعتيادي وأثار ريبتها. ولكن فجأة أثارت كلمتا رحلة بحرية، صورة؛ فقد رأته يستقل باخرة، يتبعه حمالون يحملون حقائب؛ وتذكرت ملصقات لشركات سفن تجارية ورحلات في البحر المتوسط قامت بها بنفسها، وسرعان ما فهمت كل شيء.

هتفت: «أنت ذاهب مع بركهارت».

أومأ مصدقاً: «نعم، أنا ذاهب مع أوتو»

ران الصمت عليهما معاً بعض الوقت. وأحست بأهمية التصريح وانتابها الخوف. هل ينوي أن يدعها وشأنها، أن يحررها؟ في أية حال، إنها خطوته الأولى الجدية في ذاك الاتجاه، وارتاعت إذ لاحظت قلة انفعالها، ورعبها أو أملها إزاء المشروع، وأيضاً لم تشعر بأي قدر من الفرح. لعل البدء بحياة جديدة أمر ممكن بالنسبة إليه، أما بالنسبة إليها فغير ممكن. سوف تقضي وقتاً أكثر إمتاعاً مع ألبرت؛ سوف تكسب بيير في صفها، نعم؛ لكنها ستظل دائماً امرأة مهجورة. لقد فكرت في هذا الاحتمال مئة مرة، رأت فيه وعداً بالحرية وبالخلاص؛ أما الآن وقد بدا وكأن الاحتمال قد يغدو حقيقة،

شعرت أن الكثير من القلق والإحساس بالعار والذنب يصاحبه حتى أنها فقدت الأمل وكل رغبة فيه. شعرت أنه كان يجب أن يحدث قبل الآن، أيام العاصفة والسعادة العارمة، قبل أن تتعلم الاستسلام. والآن لقد جاء بعد فوات الأوان، ولا فائدة، إنه ليس غير خط مرسوم تحت عمل منجز، هو نتيجة وتوكيد مرير على ما أخفته وبالكاد اعترفت به أمام نفسها؛ ولا يحمل في طياته أي بصيص لحياة جديدة.

درس فيراغوث عن كثب قسمات وجه زوجته المكبوحة وشعر بالرثاء لأجلها.

قال بنبرة استرضاء: «سوف نقوم بمحاولة. ستعيشون معاً لايعكر صفوكم أحد، أنت وألبرت ـ وبيير، أيضاً ـ فلنقل، مدة عام. لقد رأيت أن هذا يناسبك، وسوف يفيد الولدين بلا ريب. إن مما يثقل عليهما قليلاً أن... أننا لم ننجح في ترتيب حياتنا ونحن الإثنان سوف نرى الأمور بوضوح أشد بعد فترة انفصال مطولة. ألا تظنين ذلك؟»

قالت بهدوء: «ربما. يبدو أن قرارك قد بُتَّ».

«لقد كتبت لأوتو. إذ ليس من السهل عليّ، في الواقع، أن أترككم جميعاً فترة طويلة جداً».

«تقصد بيير».

«نعم، خاصة بيير. أنا أعرف أنك ستحسنين رعايته. ولا أتوقع منك أن تحدثيه كثيراً عني. ولكن لاتعامليه كما تعاملين ألبرت».

هزت رأسها محتجة، وقالت: «إن اللوم لايقع عليّ في هذا المجال. وأنت تعلم ذلك».

أراح يده بحذر على كتفها، برقة خرقاء، طال غياب ممارستها.

«أوه، أديل، دعينا من الحديث عن اللوم. فلأكن أنا الملوم على كل شيء. إن كل ما أريده هو أن أقدم تعويضاً، لا أكثر. إني فقط أريد منك أن لاتدعيني أفقد بيير إذا كان هذا ممكناً. إنه ما زال يشكل رابطاً بيننا. فقط احرصي على أن لايكون حبه لي شديد الوطأة عليه».

أغمضت عينيها وكأنما لتحتمي من الغواية.

قالت، مترددة: «ولكن إذا طال غيابك... إنه مجرد طفل...»

«طبعاً. دعيه يبقى طفلاً، فلينسني إن لم تكن ثمة طريقة أخرى. ولكن تذكري، إني أتركه وديعة عندك، وتذكري، إني أثق بك ثقة كبيرة تجعلني قادراً على تركه معك».

أسرعت فهمست «أسمعُ ألبرت قادماً، وسيصل للتو. سنتحدث أكثر فيما بعد. إن المسألة ليست بالبساطة التي تظن. إنك تمنحني من الحرية ما يفوق ما حصلت عليه منها حتى الآن وما أردته، وفي الوقت نفسه تلقي على عاتقي مسؤولية تحرمني من كل حس بالحرية. دعني أستزيد من التفكير في الأمر. أنت نفسك لم تتخذ هذا القرار في ساعة من الزمن؛ فامنحني بدوري بعض الوقت».

سمع وقع خطى خارج الباب ثم دخل ألبرت.

دهش لدى مشاهدته والده جالساً هناك، فسلّم عليه مكرهاً، وقبّل فراو أديل، ثم جلس ليتناول طعام الإفطار.

قال فيراغوث بتحبب: «لدي مفاجأة لك؛ في إمكانك أن

تمضي عطلة فصل الخريف مع الماما وبيير أينما تشاء، وعطلة عيد الميلاد أيضاً. سوف أسافر بضعة أشهر».

لم يخف الصبي فرحه، لكنه بذل جهداً لكي يقول بحماسة: «إلى أين أنت ذاهب؟»

«لا أدري بعد بالضبط. أولاً سأذهب إلى الهند مع بركهارت».

«أوه، أإلى هذا البعد؟ إن صديقاً لي في المدرسة ولد هناك، في سنغافورة، أعتقد. إنهم مازالوا يصطادون النمور هناك».

«آمل ذلك. إذا اصطدت واحداً، سأعود بجلده طبعاً، لكنني في الغالب أريد أن أرسم».

«أعتقد ذلك. لقد قرأت عن رسام فرنسي ذهب إلى مكان ما في المناطق الاستوائية، واستقر في جزيرة ما في البحار الجنوبية، كما أعتقد... لابد أن ذلك رائع».

«هذا بالضبط رأيي. وفي تلك الأثناء ستكون سعيداً وستعزف الكثير من الموسيقى وتتزلج على الجليد. أما الآن فسأذهب لأرى كيف يسير حال الصغير. لاتنهض».

قبل أن يجيب أي منهما كان قد خرج.

قال ألبرت بفرح: «أحياناً يكون البابا رائعاً. رحلة إلى الهند! أحب هذا، إنه شيء متميز».

ابتسمت أمه بصعوبة. لقد اهتز توازنها، وشعرت كأنها جالسة على فرع منشور. لكنها ابتسمت ورسمت تعبيراً ودياً؛ فقد كانت خبيرة في ذلك.

كان الرسام قد دخل غرفة بيير وجلس إلى جوار سريره وأخرج بهدوء دفتر مسودة صغير وبدأ يرسم رأس النائم الصغير وذراعه. ولم تكن لديه رغبة في تعذيب الطفل باتخاذ أوضاع معينة، لكنه صمّم على أن يضع له أكبر عدد من الرسوم التخطيطية وبأفضل أسلوب خلال الأيام الباقية، وبهذا يطبع صورته في ذاكرته. وأخذ بكل عناية حنون يدرس هيئات محبوبة وانسياب الشعر الرقيق ومفرقه، والمنخرين الجميلين المتوترين واليد النحيلة، المرتاحة بخمول، والخط الأرستقراطي، المتصلب، الذي يرسم الفم المغلق بإحكام.

إنه نادراً ما شاهد الطفل وهو في السرير، ولم يسبق له أن رآه نائماً إلا بشفتين طفوليتين متباعدتين، وبينما هو يراقب الفم المعبّر بحذر، أدهشه شبهه بفم والده هو، أي جد بيير، الذي كان مفعماً بالحيوية وذا خيال خصب لكنه كان رجلاً قلقاً بعمق. وأثناء ما كان يراقب الطفل ويرسم، راح يفكر ملياً في هذه اللعبة ذات المغزى التي تلعبها الطبيعة مع قسمات وجوه وأقدار الآباء، والأبناء، والأجداد، وسحجتْ أحجيةُ الضرورةِ والمصادفةِ المقلقة، والفاتنة، عقلَ هذا الرجل الذي ليس بمفكر.

فجأة استيقظ النائم ونظر في عيني والده، ومن جديد دهش فيراغوث لنوعية تلك النظرة وذاك الاستيقاظ الرصينين، غير الطفوليين. وبسرعة وضع قلم الرصاص جانباً وأغلق دفتر رسمه. ومن ثم مال على الطفل، وقبّله على الجبين، وقال بمرح: «صباح الخير، يا بيير. ألا تشعر بتحسن؟»

ابتسم الطفل بسرور وبدأ يتمطى. أن، نعم، إنه يشعر بتحسن، بتحسن كبير. وشيئاً فشيئاً أخذ يتذكر. نعم، بالأمس

كان مريضاً، ولا زال يشعر بالشبح المهدِّد لليوم البشع. أما الآن فالأحوال أفضل بكثير، إنه لايرغب إلا في أن يظل متمدداً في السرير أكثر قليلاً، ليتلذذ بدفئه بامتنان هادئ، ومن ثم ينهض ويتناول فطوره وبعدها يخرج مع الماما إلى الحديقة.

ذهب فيراغوث ليحضر الماما. وأخذ بيير يطرف بعينيه وهو ينظر نحو النافذة؛ حيث كان نور النهار المشرق والبهيج يسطع من خلال الستائر ذات اللون الأصفر الفاتح. ها هنا نهار يقدِّم بعض الوعود، يعبق بكل صنوف المسرات. كم كان الأمس ضحلاً وبارداً وثقيل الوطأة! أغمض عينيه لينساه، وشعر بالحياة المبتسمة تسري في أعضائه المخدَّرة بالنعاس.

دخلت أمه مع بيضة وكوب من الحليب، ووعده والده أن يحضر له أقلام تلوين جديدة، وكان الجميع محباً وعطوفاً، وسعيداً لرؤيته وقد استعاد عافيته، وكان الجو أشبه بجو عيد ميلاده، ولايهم إن لم تكن هناك كعكة، إذ إنه في الواقع لم يكن جائعاً كثيراً.

حالما ارتدى بذلته الزرقاء الصيفية الجديدة، ذهب ليزور والده في المحترف. وكان قد نسي أمر كابوس الليلة الفائتة الرهيب، ولكن كان ما يزال هناك صدى خافتاً، مرتجفاً، من الرعب والمعاناة يسكن قلبه، والآن بات عليه أن يتلذذ بالاستمتاع بالشمس المشرقة وبالحب المحيط به، ويتأكد من وجودهما.

غمرت البهجة والده، الذي كان يحدد أبعاد إطار لوحته الجديدة، لرؤيته. لكن بيير لم يكن ينوي أن يطيل مكوثه، اراد فقط أن يلقي تحية الصباح ويتلقى جرعة من الحب. وبعد ذلك

عليه أن يغادر، ليزور الكلب والحمام وروبرت ويلقي نظرة على المطبخ، ويحييهم جميعاً من جديد ويمتلكهم من جديد. ثم خرج إلى الحديقة مع الماما وألبرت، وخيل إليه أن عاماً قد مضى منذ أن استلقى هناك على العشب وأجهش بالبكاء. ولم تكن به رغبة في الرقص لكنه عرف ما هو اللحن... ثم ذهب ليرى الشجيرات ومساكب الزهور، وراودته ذكرى مبهمة عن حياة سابقة، وكأنما كان ذات مرة قد ضاع بين مساكب الزهور، ضاع، تُرك وحيداً، مهموماً. والآن عاد كل شيء براقاً وحيوياً، والنحل يطن والهواء خفيفاً ويبهج استنشاقه.

أعطته أمه سلة زهورها ليحملها، وقد وضعت فيها زهور القرنفل والدهلية، وفي تلك الأثناء جمع باقة منفصلة، كان ينوي أن يعطيها لأبيه لاحقاً. عندما عاد إلى المنزل كان قد نال منه التعب. عرض ألبرت عليه أن يلعب معه، لكنه أراد أولاً أن يأخذ قسطاً من الراحة. غاص عميقاً في كرسي أمه الكبير المملَّد الموضوع في الشرفة، وهو مايزال يحمل باقة زهور البابا. ثم أغمض عينيه، وقد سرى فيه تعب محبب، واستدار نحو الشمس، وأخذ يستمتع بالضوء الأحمر الدافئ المشع من خلال جفنيه. ثم أخذ يتفرج بسرور على أجزاء بذلته الجميلة والنظيفة ويمد حذاءه الأصفر اللماع إلى أشعة الشمس، الأيمن ثم الأيسر على التوالي. ووجد أن من الممتع أن يجلس هكذا بهدوء تام مع شيء من الإرتياح الواهن وهو نظيف؛ لكن عبق زهور القرنفل كان قوياً جداً. لذا حطّها ثم دفعها بعيداً على الطاولة، حتى آخر امتداد ذراعه إن عليه أن يضعها في الماء سريعاً، وإلا ذبلت قبل أن يراها البابا.

كان يفكر في والده برقة غير اعتيادية. والآن ما الذي

حدث بالأمس؟ لقد ذهب ليزوره في المحترف، وكان البابا يعمل ولم يكن لديه متسع من الوقت، وقد وقف أمام لوحته، وحده وهو منهمك كلياً في العمل وحزين قليلاً. إلى هذا الحد يتذكر كل شيء بدقة. ولكن ماذا بعد ذلك؟ ألم يقابل والده في الحديقة لاحقاً؟ حاول أن يتذكر. نعم كان والده يتمشى جيئة وذهاباً في الحديقة، وحده وعلى وجهه تعبير غريب، حزين، حتى أنه رغب في أن ينادي عليه... فماذا حصل؟ لقد حدث أمر رهيب أو مخيف بالأمس، أو أنه سمع عنه بالأمس، ولايستطيع أن يسترجعه.

راح يلاحق أفكاره وهو مستند إلى ظهر الكرسي العميق. كانت الشمس تسطع ذهبية ودافئة على ركبتيه، لكن سروره أخذ يفارقه ببطء شديد. شعر أن أفكاره أكثر فأكثر من ذاك الأمر الرهيب، وشعر أنه حالما يكتشف ما هو فسوف يعود ليسيطر عليه؛ إنه يقف خلفه، وينتظر. وكلما كانت ذاكرته تقترب من ذاك الخط الفاصل، يجيش فيه إحساس بالغثيان والدوار، ويبدأ رأسه يؤلمه.

كانت أزهار القرنفل تزعجه برائحتها الطاغية، وهي ملقاة على الطاولة الممدّدة وتذبل؛ فإذا أراد أن يعطيها لأبيه، فإن هذا هو الوقت المناسب ـ غير أنه لم يعد يشعر برغبة في ذلك، أو بالأحرى، كانت لديه رغبة لكنه كان مرهقاً من التعب والنور يؤذي عينيه. وفوق كل ذلك، كان عليه أن يفكر ويتذكر ما حدث بالأمس. شعر أنه قد اقترب كثيراً منه، حتى أنه لم يعد أمام أفكاره إلا أن تمد يدها وتلمسه، لكنه كان في كل مرة يتلاشى ويختفي.

ازداد صداعه سوءاً. آه، لمَ يجب أن يصبح هكذا؟ لقد كان

في غاية السعادة اليوم.

نادت فراو أديل باسمه من ممر الباب وبعد برهة خرجت. ورأت الأزهار ملقاة تحت أشعة الشمس وكانت تنوي أن تطلب من بيير أن يحضر ماءً، لكنها عندئذ نظرت إليه ورأته مسترخياً في الكرسي وحبات كبيرة من الدموع تخضّل وجنتيه.

«بيير، يا ولدي، ما الأمر؟ ألست على مايرام؟»

نظر إليها دون أن يحرك ساكناً وأغمض عينيه من جديد.

«أجبني يا ملاكي، ما الأمر؟ أتريد أن تأوي إلى السرير؟ أم نلعب؟ أأنت متألم؟»

هز رأسه نفياً، ورسم تعبيراً عدائياً على وجهه، وكأنها كانت تزعجه. همس: «دعيني وحدي».

عندما عدّلت من جلسته وطوقته بذراعيها، رماها برهة بنظرة نارية كأنما غضباً وصرخ بصوت عال بشكل غير طبيعي: «أوه، دعيني وشأني!»

بعدها بلحظة كف عن المقاومة، وغاص بين ذراعيها، وعندما رفعته، راح يئن بوهن، وترك رأسه يتدلى إلى الأمام، وتلوى في نوبة من التقيؤ.

13

منذ أن عاش فيراغوث وحده في الجناح الجديد، لم تزره زوجته قط وهو هناك. وعندما اندفعت إلى المحترف دون أن تقرع الباب، استعد فوراً لتلقي أخباراً سيئة. وقد تأكدت صحة إنذار غريزته حتى أنه، وقبل أن تقول كلمة واحدة، انفجر، قائلاً: «أَحَصَلَ خطب لبيير؟»

أومأت على عجل بالإيجاب. قالت: «لابد أن مرضه خطير. لقد تصرف بطريقة غريبة جداً، وها هو الآن قد عاد يتقيأ. يجب أن تستدعي الطبيب».

بينما كانت تتكلم، كانت عيناها تنتقلان بسرعة في أرجاء الغرفة الفسيحة ثم استقرتا على اللوحة الجديدة. لم تر فيها الأشخاص، ولم تلاحظ حتى وجود بيير الصغير، كانت تحدق فقط إلى اللوحة وتتنفس هواء هذا المكان الذي ظل زوجها يقطنه طوال تلك السنين. شعرت بغموض بجو العزلة والإكتفاء الذاتي المتحدي الذي لايختلف عن الجو الذي كانت تعيش فيه منذ زمن طويل. دام هذا الانطباع برهة قصيرة، ثم استدارت عن اللوحة وحاولت أن تجيب عن سيل أسئلة زوجها.

أخيراً قال: «اطلبي السيارة بالهاتف، إنها أسرع من

العربة. سأتوجه إلى البلدة بنفسي، فقط ريثما أغسل يديّ. سآتي في الحال. ألم تضعيه في السرير؟»

بعد ذلك بخمس عشرة دقيقة كان في البلدة يبحث عن الطبيب الوحيد الذي يعرفه، وكان قد عرج على المنزل مرة أو مرتين قبل بضع سنوات. توجه فيراغوث إلى عنوان الطبيب القديم لكنه وجد أنه قد انتقل. وفي طريقه إلى العنوان الجديد، مرّ بعربة الطبيب، فحياه الطبيب، ورد له التحية، ولم يتذكر إلا بعد أن تجاوزه أنه الرجل الذي يبحث عنه فعاد أدراجه فوجد عربة الطبيب متوقفة خارج منزل أحد المرضى. وبعد فترة انتظار طويلة بشكل يثير الأعصاب، أمسك بالطبيب عند ممر الباب ووضعه في السيارة. فاحتج الطبيب وقاوم، واضطر فيراغوث إلى أن يستخدم القوة.

في السيارة، التي انطلقت تبغي روسهالده بأقصى سرعة، وضع الطبيب يده على ركبته وقال: «حسن جداً، أنا سجينك. وعلى الآخرين الذين يحتاجون إليّ أن ينتظروا، أنت تعلم ذلك. والآن أخبرني عن المشكلة. أزوجتك مريضة؟ ـ لا؟ ـ إذن فهو الصغير؟ قل لي اسمه ثانية؟ آه، نعم، بيير. لم أره منذ وقت طويل. أوقع له حادث؟»

«إنه مريض، بدأ الأمر البارحة. وفي هذا الصباح بدا أن كل شيء قد عاد إلى أحسن ما يرام، ونهض وتناول بعض الطعام. لكنه الآن فقط عاد من جديد يتقيأ وبدا متألماً».

مرّر الطبيب يده النحيلة فوق وجهه الذكي والبشع. «لابد أنها معدته. سنرى. هل كل شيء آخر على مايرام؟ لقد شاهدت معرضك في ميونيخ في الشتاء الفائت. إننا

فخوورون بك، يا صديقي».

نظر في ساعته. ولاذ بالصمت عندما زادت السرعة عند المنحدر وعلا هدير المحرك. وسرعان ما وصلا وترجلا من السيارة عند البوابة التي لم تكن مفتوحة.

طلب الطبيب من السائق أن ينتظره، ثم أسرعا بعبور الفناء وولجا المنزل. كانت فراو أديل جالسة بجوار سرير بيير.

هنا، فجأة، أصبح لدى الطبيب الكثير من الوقت. فتفحص الطفل بلا عجلة، وحاول أن يدفعه إلى الكلام، وطمأن الأم بكلمات لطيفة، وخلق بهدوء جواً من الثقة النظامية، كان له أيضاً تأثير مهدئ على فيراغوث.

كان بيير غير متعاون، صامتاً، وغير ودي، ومرتاباً. وعندما جسّ الطبيب بطنه وضغط عليه، رسم تكشيرة مزدرية، وكأنه وجد أن كل هذا سخيف ولا فائدة منه.

قال الطبيب بتروٍ: «يبدو التسمّم مستبعداً، ولاخطب في الزائدة. لعله فساد بسيط في المعدة، وأفضل شيء بالنسبة إلى هذه الحالة هو أن ننتظر ونرى. لاطعام. لاتعطوه أي شيء اليوم ما عدا قليلاً من الشاي إذا شعر بالعطش؛ وهذا المساء في إمكانه أن يتناول رشفة من البوردو. فإذ تحسن، أعطوه على الإفطار شاياً وبقسماطاً. وإذا تألم، اتصلوا بي هاتفياً».

لم تبدأ فراو فيراغوث بطرح الأسئلة إلا بعد أن غادروا الغرفة. لكنها لم تحصل على أية معلومات إضافية.

«تبدو معدته مضطربة تماماً وواضح أن الطفل حساس

وعصبي. لا أثر للحمى. في إمكانكما أن تقيسا درجة حرارته هذا المساء. ونبضه ضعيف قليلاً. إذا لم تتحسن حالته، سأعود غداً. لا أعتقد أن هناك أي شيء خطير».

ودَّعهما على عجل وإذا به من جديد يصبح في عجلة من أمره. وصحبه فيراغوث حتى السيارة.

سأله في اللحظة الأخيرة: «أيمكن أن يطول الأمر؟»

ضحك الطبيب ضحكة جشّاء.

قال: «لم أتوقع أن تكون قلقاً إلى هذا الحد. إن الطفل رقيق ونحن جميعاً فسدت معدنا كثيراً ونحن أطفال. أسعدت صباحاً!»

أدرك فيراغوث أن لاحاجة تستدعي بقاءه في المنزل فراح يتمشى الهوينة متفكراً في الحقول. لقد أشاع فيه سلوك الطبيب المحكم، الشديد البساطة، الارتياح وقد أخذ الآن يشعر بالدهشة، لأنه أبدى الكثير من القلق المفرط والخوف.

تابع سيره، مع إحساس بالإرتياح، يستنشق هواء الصباح ذا اللون الأزرق الغامق. وبدا له أن هذه هي نزهته الوداعية في تلك المروج وصفوف أشجار الفاكهة، وشعر بقدر مقبول من السعادة والحرية عندما فكر في ذلك. وتساءل عما منحه هذا الإحساس الجديد بأن ثمة قراراً قد اتخذ وأن حلاً قد تم الوصول إليه، وسرعان ما أدرك أن ذلك نجم عن حديثه مع فراو أديل في صباح ذاك النهار. إن إخبارها عن خطط سفره، وإنصاتها بهدوء تام وعدم إبدائها أية محاولة لمقاومة، وعمله على سد كل المنافذ المحتملة ومحاولات التملص التي تحول بين قراره وتنفيذه، وكون المستقبل

المنظور يمتد أمامه واضحاً جلياً ـ كل هذا كان مصدر ارتياح، وسلام وثقة جديدة بالنفس بالنسبة إليه.

انعطف، دون أن يدري وجهته، إلى ممر كان قد طرقه قبلها ببضعة أسابيع مع صديقه بركهارت. ولم يلاحظ، إلا عندما بدأ الدرب ينحدر صعداً، أين هو، وتذكر نزهته مع أوتو. لقد كان قد نوى أن يرسم في فصل الخريف أيكة الشجيرات الكائنة في الطرف الأنأى من التل، والمقعد والممر الغامض المعتم المؤدي خلال الأشجار إلى الوادي الواضح للعيان الذي تغلفه غلالة شبه زرقاء والمؤطر كلوحة على البعد؛ كان ينوي أن يُجلس بيير على المقعد، ووجهه الطفولي الوضاء يرتاح برقة وسط ضوء الغابة البني الخفيف.

أخذ يصعد الدرب، وهو يتلفت حوله باشتياق، ولم يعد يشعر بحرارة منتصف الظهيرة، وبينما كان ينتظر لحظة يرى حافة الغابة التي تتسنّم قمة التل، عاد إلى ذاكرته اليوم الذي أمضاه مع بركهارت، تذكر حديثهما حتى أدق كلمات صديقه وتذكر خضرة المشهد الطبيعي التي تميز أوائل الصيف، والتي أضحت منذ ذلك الحين أشد دكنة وأقل حدة. وغلبه شعور لم يختبره منذ وقت طويل وقد ذكّره استرجاعه غير المتوقع وبحدة بشبابه. فقد بدا له أنه منذ نزهته في الغابة مع أوتو قد مرَّ زمن طويل وأنه هو نفسه قد نضج، قد تغير وقطع شوطاً بعيداً إلى درجة أنه لم يسعه إلا أن يستعيد صورته عندئذ بشيء من الرثاء الساخر الخاص.

دهش لهذا الشعور المترع بالشباب، والذي كان قبل عشرين سنة مضت جزءاً من حياته اليومية وما هو الآن

يفاجئه بكونه فتنة نادرة، واستعرض ذكرى فصل الصيف القصير واكتشف شيئاً كان حتى الأمس القريب مجهولاً لديه. ولدى استعراضه أياماً تعود إلى شهرين أو ثلاثة أشهر خلت، وجد أنه قد تغير؛ فاليوم عثر على الصفاء وعلى شعور باليقين فيما يتعلق باتجاهه، في حين أنه قبل وقت قصير لم يكن أمامه غير الظلام والارتباك. وكأن حياته قد أضحت من جديد تياراً أو نهراً رائقاً، يجري بتصميم في الإتجاه المعينّ له، في حين أنه كان حتى الآن راكداً في حمأة التردد المستنقعية. وقد أصبح جلياً بالنسبة إليه الآن أن رحلته لايمكن أن تعود به إلى هنا، وإنه لم يعد أمامه ما يقوم به هنا إلا أن يستأذن بالرحيل، ربما بقلب دامٍ، ولكن لايهم. إن حياته تزهر من جديد، تجري بتصميم باتِّجاه الحرية والمستقبل وعمل من داخله، وقبل أن يعي ذلك، على اعتزال البلدة والريف وروسهالده وزوجته، وقطع صلته بهم.

توقف عن السير، وأخذ يتنفس بعمق، وغمرته موجة من الصفاء ورفعته على متنها. وفكر في بيير، فخرق كيانه كله ألم ضار ممضّ عندما تيقن من أنه سيكون عليه أن يمشي هذه الطريق حتى نهايتها وأن يفارق أيضاً بيير.

ظل واقفاً هناك ردحاً طويلاً من الوقت، ووجهه ينتفض، فإذا كان ما شعر به ألم حارق، إلا أنه كان حياة ونوراً، صفاءً وإحساساً بالمستقبل. وهذا ما طلبه منه أوتو بركهارت. هذه هي الساعة التي كان صديقه ينتظرها. أخيراً نكأ خراجات قديمة طالما خشي أن يلمسها. إنها عملية جراحية مؤلمة، ألماً مبرحاً، لكنه الآن وقد ارتد عن رغباته

الأثيرة على قلبه، عن قلقه وتشتته، فإن صراع روحه وشللها قد اختفيا معها. وكان نور النهار قد انتشر من حوله، نور براق، جميل ووضاء بشكل قاس.

خطا الخطوات الأخيرة الموصلة إلى قمة التل، وقد تأثر بعمق، وجلس على المقعد الحجري المظلل. وتدفق في كيانه كله إحساسٌ عميق بالحياة وكأنه استعاد شبابه، وكتعبير عن امتنانه لتحرره فكّر في صديقه البعيد، الذي بدونه ما كان عثر على دربه، وبدونه كان في حالةِ أسرٍ مملّة سقيمة.

لكن لم يكن من شيمه أن يطيل تأمله، أو أن يغذي مزاجاً متطرفاً طويلاً. وجنباً إلى جنب مع شعوره هذا أنه قد استعاد عافيته وإرادته، أغار على كامل كيانه وعي جديد بالطاقة وبالقوة الشخصية المهيبة.

وقف منتصباً، وفتح عينيه، ومدَّ بصره بحدّة وكأنما ليحيط بلوحته الجديدة. وظل طويلاً ينعم النظر من خلال الغابة إلى الوادي البراق النائي في الأسفل. إن هذا ما أراد أن يرسمه، ولن ينتظر حتى مجيء فصل الخريف. هاهنا مهمة صعبة، بل على جانب هائل من الصعوبة؛ هي لغز نفيس يجب حلّه: إن هذا الممر الرائع خلال الغابة يجب أن يُرسَم بحب، بقدرٍ من الحب والعناية لايصدران إلا عن أحد أساطين الرسم القدامى الممتازين، من أمثال آلتدورفر(١) أو دورر(٢). ولن يكفي الإحاطة بالنور وبإيقاعه السري بل يجب إعطاء أدق

---

(١) ألبريشت ألتدورفر (١٤٨٠ ـ ١٥٣٨م): رسام ونحات ألماني.

(٢) ألبريشت دورر (١٤٧١ ـ ١٥٢٨م): رسام ونحات ألماني

الأشكال حقها كاملاً، وتقييمها وتعديلها كالأعشاب في باقات أمه الرائعة من الأزهار البرية. ويجب إقحام الوادي البراق الرائق البادي على البعد إلى الخلف بمقدار الضعف، وذلك باللجوء إلى النور الدافئ المتدفق للخلفية وإلى ظلال الغابة، يجب جعله يشع كحجر كريم من أعماق اللوحة، رائقاً وعذباً، غريباً وفاتناً.

نظر في ساعة يده. لقد حان وقت العودة إلى المنزل، اليوم ليست لديه رغبة في جعل زوجته تنتظر. ولكن قبل ذلك أخرج دفتر مسودة الرسم الصغير، ووقف تحت شمس منتصف الظهيرة عند حافة التل، وأخذ يضع الخطوط الكبرى للّوحة بضربات واضحة، مثبتاً الخطوط المنظورية العامة والشكل البيضاوي الواعد للمشهد الصغير الوامض البادي على البعد.

ثم إنه تأخر عن موعده، فأخذ يركض، متجاهلاً الحر، منحدراً أسفل الممر المشمس. وراح يفكر في مواد الرسم التي قد يحتاجها وقرر أن يستيقظ في صباح اليوم التالي الباكر لكي يشاهد المنظر الطبيعي على أول بوادر نور الصباح. وطفر قلبه فرحاً لأن مهمة صعبة، رائعة أخرى كانت في انتظاره.

كان سؤاله الأول هو: «كيف حال بيير؟» حالما هرع داخلاً إلى المنزل.

أجابت فراو أديل، إنه تعب ويركن إلى الراحة؛ ولايبدو أنه يعاني من أي ألم وإنه مستلق بصبر في السرير. ورأت أن من الأفضل الامتناع عن إزعاجه، فهو يبدو شموساً بصورة

غريبة، ويجفل كلما فُتح باب أو صدر أي صوت غير متوقع.

أومأ موافقاً وأجاب: «آه حسن، سأعرج في وقت لاحق، ربما قرابة المساء. سامحيني لأني تأخرت قليلاً، كنت أتمشى. سوف أرسم في الهواء الطلق خلال الأيام القليلة القادمة».

كان يخيم على مائدة الأفطار السكينة والهدوء. ومن خلال الستائر المرخية رشح نور أخضر إلى الغرفة الباردة، وكانت النوافذ كلها مفتوحة، وكان بالإمكان سماع طرطشة مياه النافورة الصغيرة الكائنة في الفناء تتناهى عبر صمت منتصف الظهيرة.

قال ألبرت: «سيكون عليك أن تتفوق على نفسك استعداداً للهند. هل ستأخذ معك أدوات صيد؟»

«لا أظن ذلك، فيركهارت لديه كل شيء. وهو سيخبرني ماذا سآخذ معي. أعتقد أن أدوات الرسم يجب أن تحزم داخل صناديق رصاصية مختومة».

«هل ستعتمر خوذة استوائية؟»

«بلا ريب، ولكن في إمكاني أن أشتري واحدة في الطريق».

عند الانتهاء من تناول الطعام كان ألبرت قد غادر المائدة، وطلبت فراو أديل من زوجها أن يمكث قليلاً. وجلست في سريرها المملّد بالقرب من النافذة وجرّ هو كرسياً كبيراً ووضعه بجانبها.

سألته «متى ستغادر؟».

«أوه، هذا يتوقف كلياً على أوتو؛ في الوقت المناسب له.

أعتقد أنه قرابة نهاية شهر أيلول».

«أبهذه السرعة؟ لم يتوفر لي الكثير من الوقت لأقلّب التفكير في الأمور، كنت شديدة الانشغال ببيير. ولكن فيما يتعلق ببيير، لا أعتقد أن عليك أن تطلب مني الكثير».

«أوافقك على هذا، لقد كنت أفكر في ذلك خلال هذا الصباح. وأريد منك أن تشعري بكامل حريتك. لقد أدركت أنه لن يفيدني أن أذهب لأتجول في العالم وأظل أتوقع أن يكون لي الحق في التدخل في شؤونك هنا. عليك أن تفعلي ما ترينه صحيحاً. ولا مبرر لأن يكون نصيبك من الحرية أقل مما أطلبه لنفسي».

«وماذا سيحل بالمنزل؟ لا أحب أن أبقى هنا وحدي، إنه شديد البعد عن العمران ومفرط الاتساع، إلى جانب أنه متخم بذكريات تسبب لي الإضطراب».

«لقد قلت لك لتوي، اذهبي إلى حيث تشائين. إن روسهالده هي ملكك، وأنت تعلمين هذا، وقبل أن أرحل سوف أثبّت ذلك كتابة، تحسُّباً».

شحب لون وجه فراو أديل، وراحت تراقب وجه زوجها بانتباه يكاد يكون عدائياً.

قالت مع مسحة من الانقباض: «إنك تتكلم وكأنك لاتنوي أن تعود أبداً».

طرف بعينه متفكراً وهو ينظر إلى الأرض. قال: «من يدري. حتى الآن ليست لدي أدنى فكرة عن المدة التي سأغيب خلالها، ولا أعتقد أن الهند تعتبر بلداً صحياً كثيراً بالنسبة إلى رجل في مثل سني».

هزت رأسها مشددة: «ليس هذا ما قصدته. يمكن لأي منا أن يموت. إن ما قصدته هو هل لديك أية نية في أن تعود؟»

طرف بعينه ولم يقل شيئاً. وأخيراً ابتسم بوهن ونهض واقفاً قال: «فلنتحدث حول هذا في وقت آخر. إن آخر شجار بيننا كان حول هذه المسألة، قبل بضع سنوات، أتتذكرين؟ ولا أريد أي مشاجرات أخرى هنا في روسهالده، خاصة معك. وأعتقد أنك مازلت تحملين الأفكار نفسها حول الموضوع الذي كنتِ تحملينها عندئذ. أم هل ستدعينني أضم بيير إليّ اليوم؟»

هزت فراو فيراغوث رأسها في صمت نفياً.

قال زوجها بهدوء: «كما حسبت تماماً. من الأفضل أن ندع هذه الأمور خامدة. وكما قلت، في وسعك أن تفعلي بالمنزل ما تشائين. إني لا أعلق أية أهمية على احتفاظي بروسهالده؛ فإذا ما دفع أحدهم لك سعراً جيداً في المكان، فلم لاتبيعيه؟»

قالت في نبرة صوت تنطوي على مرارة عميقة، وهي تفكر في الأيام الأولى الخوالي، بألبرت وليداً، وبكل آمالها القديمة وتطلعاتها: «إذن فهذه هي نهاية روسهالده».

استدار فيراغوث، الذي كان قد اتجه لتوه نحو الباب، وقال برفق: «هوّني عليك، يا طفلتي. احتفظي به إذا شئت».

خرج وفك وثاق الكلب؛ فرح الحيوان المتهلل وأخذ يتقافز حوله وينبح وهو في طريقه إلى المحترف. ماذا يعني له روسهالده؟ لقد كان أحد الأشياء التي تركها وراءه. والآن

ولأول مرة شعر أنه أقوى من زوجته. لقد رسم خطأ واضحاً. وفي قلبه قام بتضحيته، تخلى عن بيير. وبعد اتخاذ هذه الخطوة، أصبح كيانه كله يتطلع فقط إلى الأمام لقد انتهت روسهالده بالنسبة إليه، انتهت ككل الآمال المجهضة العديدة الأخرى لتلك الأيام، انتهى كما انصرم عهد شبابه. ولا فائدة من النواح عليه.

رن الجرس فظهر روبرت.

«سأمارس الرسم في الهواء الطلق بضعة أيام. فتلطف بإعداد علب الألوان الصغيرة ومظلة الشمس من أجل الغد. وأيقظني في الخامسة والنصف».

«سأفعل حتماً هر فيراغوث».

«هذا كل شيء. أعتقد أن الطقس سيظل مستقراً. ما رأيك؟»

«أعتقد ذلك... ولكن، عذراً، هر فيراغوث، ثمة أمر أود أن أسألك عنه».

«حسن؟»

«سامحني، ولكني سمعت أنك ذاهب إلى الهند».

ضحك فيراغوث مندهشاً «لقد انتقل الخبر بسرعة خارقة. إذن فقد تكلم ألبرت. حسن، نعم، سأذهب إلى الهند، ولايمكنك أنت أن تصحبني، يا روبرت، أنا آسف. إذ ليس هناك أي خدم أوروبيين. ولكن في وسعك دائماً أن تعود إليّ لاحقاً إذا شئت. وفي تلك الأثناء، سوف أعثر لك على عمل آخر، وعلى أية حال فإن رواتبك سوف تدفع لك حتى مطلع العام».

«شكراً لك، هر فيراغوث، شكراً جزيلاً لك. وأود أن أحصل على عنوانك، لأني أريد أن أراسلك. في الواقع ـ لا أدري كيف أعبر ـ في الواقع، إن لي خطيبة، هر فيراغوث».

«أوه، ألديك خطيبة؟».

«نعم، هر فيراغوث، وإذا تركتني أذهب، فسيتحتم عليّ أن أتزوجها. في الواقع، لقد وعدتها بأني لن أتولى أي عمل إذا ما تركت هذا المكان».

«حسن، إذن سيسعدك أن ترحل. لكني سأكون آسفاً، يا روبرت وماذا تنوي أن تفعل بعد أن تتزوج؟»

«حسن، إنها تريد أن تفتح معي محلاً لبيع السيجار».

«محل بيع السيجار؟ هذا العمل ليس لك يا روبرت؟».

«لاضير في المحاولة، هر فيراغوث. ولكن بعد إذنك... ألا أستطيع أن أستمر في خدمتك، هر فيراغوث؟»

ربت الرسام على كتفه، وقال: «يا إلهي، يا رجل، ما الذي يحدث هنا؟ أتريد أن تتزوج، وتريد أن تفتح محلاً أبله، وتريد أن تبقى معي أيضاً؟ يبدو لي أن ثمة ما ليس على مايرام... لدي انطباع يا روبرت بأنك لست متحمساً كثيراً لهذا الزواج؟»

«لا، هر فيراغوث، بعد إذنك، لست متحمساً. إن خطيبتي عاملة جيدة، لا أنكر ذلك. لكني أفضل أن أبقى معك. إن لها مزاجاً حاداً و....»

«ولكن، يا عزيزي، لماذا ستتزوجها إذن؟ أنت تخشاها! آمل أن لايكون بينكما طفل؟»

«لا، ليس هذا السبب. بل إنها لاتوفر لي السكينة».

«في هذه الحالة يا روبرت، قدّم لها دبوساً جميلاً للزينة، وسوف أساهم أنا بتالر. أعطه لخطيبتك وقل لها أن تذهب وتجد لنفسها شخصاً آخر يشاركها فتح محل بيع السيجار. قل لها أني قلت ذلك. يجب أن تخجل من نفسك! سوف أمنحك أسبوعاً. وبعد ذلك أريد أن أعرف إن كنت من النوع الذي يخشى مجرد فتاة».

«حسن، حسن، سأخبرها...»

كف فيراغوث عن الابتسام، ثم أخذت عيناه ترسل سياطاً من الغضب إلى روبرت الفزع: «سوف تطرد تلك الفتاة شر طردة، يا روبرت، وإلا انتهى أمرنا أنت وأنا. وسوف ترى نفسك تجرّ إلى مذبح الكنيسة! يمكنك أن تذهب الآن. احرص على البت في هذا الأمر في أقصر وقت».

ملأ غليوناً، ثم خرج بصحبة دفتر رسم أكبر حجماً وحقيبة ملآى بأقلام الفحم، ويمم وجهه شطر التل المشجَّر.

14

لم ينفع الصوم. وظل بيير فيراغوث رابضاً في سريره، وكوب الشاي لم يُلمَس. وكان الآخرون يعملون قدر الإمكان على تركه في سلام، لأنه لم يكن ينبس بشفة عندما يُسأل وينكص بنزق كلما دخل أحدهم الغرفة. أحياناً كانت أمه تجلس بجوار سريره، تغمغم، وترتل كلمات رقيقة مواسية؛ ويتملكها قلق غريب، لأنه بدا لها أن المريض الصغير كان يتحصن بعناد داخل حزن سري. ورفض أن يجيب عن أي سؤال أو مناشدة أو اقتراح، واكتفى بالتحديق بكآبة إلى الفراغ، ولم يبد أية رغبة في النوم أو اللعب أو الشرب أو في أن يسمع أحداً يقرأ له. وكان الطبيب قد عاده يومين على التوالي؛ ولم يعلق بالشيء الكثير وأوصى بكمادات فاترة. وكان بيير في أغلب الأوقات في حالة شبه نوم كالتي تنجم عن الحمى، مغمغماً بكلمات غير مفهومة في ما يشبه هذيان الحلم المكبوت.

كان فيراغوث منذ عدة أيام يمارس الرسم في الهواء الطلق. وعندما عاد إلى البيت عند الغسق، سأل عن الصبي. وطلبت منه زوجته أن لايدخل إلى غرفة المريض لأن بيير يتأثر بشكل مفرط الحساسية أمام أقل إزعاج وأنه الآن يبدو قد أغفى. ولما لم تكن فراو أديل كثيرة الكلام وبدت منذ

حديثهما الأخير أنها تشعر بالإضطراب في حضوره، لم يلح في طرح الأسئلة وذهب بهدوء ليأخذ حمّامه. وأمضى أمسيته في الإثارة الدافئة، اللذيذة التي كان يمر بها عند استعداده لمباشرة عمل جديد. وكان قد رسم عدة دراسات ويخطط لشن هجوم على اللوحة في اليوم التالي واختار برضى ورق الكرتون وقماشة الكنفا، وأصلح بعض الموسّعات التي تراخت عند الزوايا، وجمع الفراشي معاً ومواد الرسم بأنواعها المختلفة، وانهمك كأنما استعداداً للقيام برحلة قصيرة، بل إنه أعدّ كيس التبغ الملآن، والغليون والولاعة، وكأنه سائح يخطط لإرتقاء جبل في الصباح ولايعرف طريقةً أفضل في قضاء ساعات الترقب التي تسبق الإيواء إلى السرير من التفكير بتحبّب في اليوم المرتقب وفي الإعداد لكل شيء صغير سيحتاجه.

بعد ذلك استقر مع كأس من النبيذ وأخذ يستعرض بريد المساء. كانت هناك رسالة ممتعة، دافئة العواطف، جاءته من بركهارت، الذي ألحق بها، على طريقة ست البيت الجيدة الموسوسة، لائحة بكل ما يتوجب على فيراغوث أن يأخذه معه في رحلته. وقرأ فيراغوث اللائحة كلها متسلياً، والتي لم يلغِ منها أربطة الخصر الصوفية ولا خف الشاطئ، لا المنامة ولا الطماقات. وفي أسفل الرسالة كتب بركهارت بقلم الرصاص: «سأسهر على كل شيء آخر، بما في ذلك قمريتنا. لاتدع أحداً يقنعك بشراء عقاقير مضادة لدوار البحر، أو الأدب الهندي. سوف أهتم بكل هذا».

ابتسم، والتفت إلى لفّة كبيرة من ورق الكرتون تحتوي

على بعض الكليشيهات كان قد أرسلها له رسام شاب من دوسلدورف مع إهداء يبدي فيه احترامه. اليوم وجد الوقت اللازم لمثل هذه الأشياء، لقد كان في مزاج مناسب، فتفحص الكليشيهات بعناية واختار أفضلها لحقائبه؛ وسوف يعطي الباقي لألبرت. وكتب للرسام رسالة قصيرة مناسبة.

أخيراً، فتح دفتر رسمه وراح يدقق مطولاً في الرسومات العديدة التي كان قد نفّذها. ولم يكن راضياً تماماً عن أي منها، وسوف يقوم بمحاولة أخرى في اليوم التالي، مستوعباً أكثر المشهد العام، وإذا ظلت الصورة دون المرام، سيواصل القيام بتنفيذ الدراسات إلى أن يحصل على ما يريد، وفي كل الأحوال، سوف يبذل جهداً جاداً في اليوم التالي، أما الباقي فيأتي من تلقاء ذاته. وهذه اللوحة سوف تكون بمثابة الوداع لروسهالده؛ ولاشك في أن هذا المنظر الطبيعي هو الأشد تأثيراً في النفس وفتنة في المنطقة، وأمل في أن لايكون إرجاؤه العمل فيه مرة بعد أخرى بلا فائدة. إنه موضوع لايمكن التخلص منه برسم تخطيطي مندفع، ويتطلب تدبُّراً متأنياً. وفيما بعد في المناطق الاستوائية سوف يستمتع من جديد بمغامرة شن انقضاضات سريعة على الطبيعة، بكل ما تنطوي عليه تلك الانقضاضات من مصاعب، وهزائم، وانتصارات.

أوى إلى السرير في وقت مبكر ونام نوماً عميقاً إلى أن أيقظه روبرت. وعندئذ نهض بسرعة يملؤه الفرح، وهو يرتعش في هواء الصباح القارس، وجرع ملء طاس من القهوة وهو واقف على قدميه، وكان في أثناء ذلك يستعجل

روبرت، الذي سيحمل له الكنفا، وكرسي المخيمات، وصندوق الألوان. بعد ذلك بقليل غادر المنزل واختفى، يتبعه روبرت، وسط المروج الصباحية الباهتة اللون. وكان ينوي أن يمر على المطبخ ليسأل إن كان بيير قد أمضى ليلة هادئة، لكنه وجد المنزل مغلقاً ولا أحد قد استيقظ. كانت فراو أديل قد سهرت جزءاً من الليل مع الطفل، الذي بدا محموماً قليلاً. وسمعت غمغمته الهذيانية، وجسّت نبضه، وسوّت سريره. وعندما تمنت له ليلة هانئة وقبلته، فتح عينيه ونظر إلى وجهها لكنه لم يجب. ومضى الليل بهدوء.

عندما دخلت إلى غرفته في الصباح كان بيير مستيقظاً. ولم يرغب في تناول أي شيء على الإفطار لكنه طلب إحضار كتاب مصور. وذهبت أمه لإحضاره. ثم أقحمت وسادة أخرى تحت رأسه، ونحّت جانباً ستائر النافذة، ووضعت الكتاب بين يدي بيير؛ وكان مفتوحاً على صورة يكنّ لها إعجاباً خاصاً، تمثل الشمس كوجه سيدة، كبير، يتلألأ بالضياء، وأصفر بلون الذهب.

رفع الكتاب إلى وجهه، فسقط نور الصباح البراق المبهج على الصفحة. ولكن سرعان ما امتد ظل قاتم من الألم وخيبة الأمل وجهه الحساس.

صرخ صرخة عذاب: «آه، إنها تسبب الألم!» وترك الكتاب يقع منه.

التقطته وقرّبته ثانية من عينيه، وناشدته: «لكنك تحب السيدة الشمس كثيراً».

وضع يديه أمام عينيه، وقال: «لا، أبعديها. إنها صفراء

اللون بشكل يثير التقزز!».

أبعدت الكتاب وهي تطلق تنهيدة. ماذا يمكن أن يكون خطب الطفل! إنها تعرف تقلبات مزاجه وحساسياته، لكنه لم يكن هكذا قط.

قالت وقد عاودها الأمل: «لدي فكرة. سأحضّر لك كوباً لذيذاً من الشاي ويمكنك أن تضيف إليه السكر وتتناول قطعة كبيرة من البقسماط تتناسب معه».

«لا أريد!»

«فقط جرب. سوف أقدم لك معروفاً، سوف ترى».

رماها بنظرة ملؤها العذاب والحنق. قال: «لكني لا أريد!».

غادرت الغرفة وظلت بعيدة بعض الوقت. وكانت عيناه تطرفان بتأثير الضوء، فقد بدا أنه يسطع بشكل غير عادي ويؤذيه فأشاح بوجهه عنه. ألن يتوفر له أي قدر من الراحة، أو المسرة، أو قليل من الفرح؟ ودفن وجهه في وسادته وهو ينشج وعض بغضب في قماش الكتان الناعم، ذي المذاق التافه. وكان ذلك صدى متناهياً من عهد طفولته المبكرة، عندما كان يوضع وهو مايزال طفلاً صغيراً جداً في سريره ولا يأتيه النوم بسرعة، فكان من عادته أن يعض على وسادته ويمضغها بإيقاع متواتر إلى أن يتعب ويستغرق في النوم. والآن ها هو يفعل الشيء نفسه، وببطء غاص في خدر صامت جعله يشعر بتحسن. ثم استلقى بسكون.

عادت أمه بعدها بساعة. مالت فوقه وقالت: «حسن،

يبدو أن بيير سيعود ولداً طيباً من جديد. لقد كنت مزعجاً جداً قبل ذلك مما أحزن الماما».

في السابق كان هذا بمثابة جرعة الدواء القوية التي نادراً ما قاومها. وعندما قالت تلك الكلمات، خشيت أن يغالي في حملها على محمل الجد وينفجر بالبكاء... ولكن يبدو أنه لم يولها أي انتباه، وعندما سألته بشيء من القسوة: «أتعلم أنك كنت قبل قليل سيء السلوك؟» فتمعجت شفته بحركة مزدرية ورماها بنظرة لامبالاة محض.

في تلك اللحظة وصل الطبيب.

«هل عاد إلى التقيؤ من جديد؟ لا؟ عظيم. وهل أمضى ليلة هائئة؟ وماذا تناول على الإفطار؟»

عندما رفع الطفل على سريره وأدار وجهه نحو النافذة، أجفل بيير من الألم وأغمض عينيه. وفوجئ الطبيب بنظرة الاشمئزاز الشديد والبؤس التي ارتسمت على وجه الطفل.

سأل فراو أديل همساً: «أهو حساس أيضاً اتجاه الأصوات؟»

قالت بهدوء: «نعم، لم يعد في وسعنا أن نعزف على البيانو، بات صوته يدفعه إلى شفا اليأس».

هز الطبيب رأسه وأسدل الستائر حتى منتصف المسافة. ثم رفع الطفل خارج السرير، واستمع إلى وجيب قلبه، ورتب أربطة تحت رضفة ساقه بمطرقة صغيرة.

قال بنبرة ودية: «يكفي هذا، لن نزعجك بعد الآن، يا بني».

أعاده بعناية إلى السرير، ثم أمسك بيده، وابتسم له.

سأل فراو فيراغوث ببسمة شهمة: هل لي بدقيقة من وقتك؟ فقادته إلى غرفة جلوسها.

قال مشجعاً: «الآن إحكِي لي أكثر عن ابنك. يبدو لي عصبياً جداً؛ يجب أن نُحسِن العناية به فترة من الوقت، أنت وأنا. إن اضطراب معدته ليس بذي بال. ويجب أن يبدأ من جديد وحتماً بتناول الطعام. فلتكن أطعمة تعمل على دعم قوته: كالبيض، والمرق، والكريما الطازجة. حاولي أن تطعميه مح البيض. وإذا فضّله حلو المذاق، اضربيه في كوب مع السكر. والآن قولي لي، هل لاحظت أي شيء آخر عليه؟»

قدمت له تقريرها، وقد انتابها الرعب إلا أن نبرة صوته الودية، الواثقة، بثت السكينة في قلبها. وما أرعبها أكثر من أي شيء كان اللامبالاة التي يبديها بيير، وكأنه لم يعد يحب أحداً. أصبح سيان لديه سواء أخاطبه أحدهم برقة أم أنّبه. وأخبرت الطبيب عما حدث بشأن الكتاب المصور، فهز رأسه.

قال، وهو ينهض واقفاً: «اتركيه على راحته؛ إنه مريض وفي الوقت الحاضر لايسعه إلا أن يسيء السلوك. دعيه يرتاح قدر الإمكان. وإذا عانى من الصداع، يمكنك أن تضعي له كمادات باردة. وفي المساء فليأخذ حماماً وليبق في الماء الفاتر أطول مدة ممكنة، فذلك سيدفعه إلى النوم.

استأذن بالرحيل ولم يدعها تصحبه في النزول على درج السلم. وقال وهو يتأهب للإنطلاق: «احرصي على أن يتناول بعض الطعام اليوم».

في الأسفل، مرّ من خلال باب المطبخ المفتوح وسأل عن خادم فيراغوث.

أمرت الطباخة الخادم: «اطلبي من روبرت أن يحضر إلى هنا. لابد أنه موجود في المحترف».

قال الطبيب: «لا عليك، سأذهب بنفسي إليه. لا، لا تزعجي نفسك، أعرف الطريق».

غادر المطبخ مازحاً. ومن ثم فجأة إذا به يغدو جاداً ومستغرقاً في التفكير، وسار بخطى بطيئة على طول الدرب من تحت أشجار الكستناء. قلّبت فراو فيراغوث التفكير في كل كلمة قالها الطبيب ولم تستطع أن تتوصل إلى قرار نهائي. واضح أنه قد أخذ مرض بيير على محمل أكثر جدية من ذي قبل، لكنه في الواقع لم يقل أي شيء يثير الرعب، وقد كان شديد الهدوء وعادي التصرفات بحيث كان من الصعب أن تعتقد أن ثمة في الأمر خطراً جدياً. وبدا أنها حالة من الضعف وإرهاق الأعصاب وسوف تنقضي بمعية الصبر والعناية الجيدة.

توجهت إلى غرفة الموسيقا وأغلقت غطاء آلة البيانو خشية أن ينسى ألبرت نفسه ويبدأ بالعزف. وراحت تتساءل إلى أي غرفة تنقل البيانو إذا استمر الوضع فترة طويلة.

كانت تذهب كلما مرت بضع دقائق لتلقي نظرة لترى كيف يسير الحال مع بيير، فتفتح الباب بحذر وتنصت لترى إن كان نائماً أم يئن. وفي كل مرة كانت تلقاه يقظاً، ينظر أمامه مباشرة بلا مبالاة؛ وكان يخيل إليها أنه يفصل بينهما مسافة حلم غريبة، حاجز رهيب، صلب، يعجز حبها ورعايتها له عن

اختراقه. كان ثمة عدو غادر. حاقد، يربض كامناً؛ تجهل طبيعته وأهدافه الشريرة وهي عزلاء في مواجهته. لعل الطفل كان يمرض بالحمى القرمزية أو بمرض أخر خاص بالأطفال.

لزمت غرفتها فترة من الوقت، وهي مضطربة. ووقع بصرها على باقة من زهر الإكليل، فمالت فوق الطاولة الماهوغاني المستديرة، فشع الخشب البنيّ المحمّر بعمق ودفء من تحت المفرش المخرّم. فأغمضت عينيها ودفنت وجهها في الزهور الصيفية الرقيقة، وعندما استنشقت رائحتها الحادة الحلوة بعمق، ألفتها تتسم بمسحة باطنية لاذعة بشكل غريب.

عندما اعتدلت، وقد انتابها شيء من الذهول، وراحت عيناها تطوفان بتكاسل فوق الزهور، والطاولة، والغرفة، هاجت داخلها موجة حزن مرير. لقد تيقظ انتباهها فجأة، وأخذت تتلفت في أرجاء الغرفة وعلى طول الجدران، وإذا بالسجادة، والطاولة بما عليها من أزهار، وساعة الحائط، واللوحات تبدو فجأة غريبة ولا يربط بينها أي رابط؛ رأت السجادة تُلف، واللوحات تُحزم، وكل شيء يُحمَّل على سيارة شاحنة لترحل بكل هذه الأغراض، وقد أضحت بلا موطن ولا روح، بعيداً إلى مكان آخر، مجهول، مختلف. تراءت لها روسهالده خاوية موصدة الأبواب والنوافذ، وشعرت أنها منبوذة وأن حزن الفراق يحدق إليها من براعم أزهار الحديقة.

لم يستمر ذلك غير بضع ثوان. وكان هذا الشعور يظهر

ويختفي مثل صرخة خفيضة ولكن ملحاحة منبعثة من الظلمة، كجزء من صورة من المستقبل برز برهة وجيزة. وبزغ بوضوح إلى وعيها من عالم المشاعر الأعمى أنها قريباً ستغدو مع ابنها ألبرت والصغير المريض بيير مشردين، وسيرحل زوجها عنها، وستجثم على روحها وإلى الأبد برودة السنوات المجدبة، كئيبة ملؤها اليأس. سوف تعيش من أجل ولديها، لكنها لن تعثر بعد الآن على حياتها الخاصة الجميلة التي كانت تأمل في أن يوفرها فيراغوث لها ولا على مطالبتها السرية بها التي ظلت تحتفظ بها وترعاها حتى الأمس القريب واليوم. لقد فات الأوان على هذا. ومعرفتها المخيبة أصقعت قلبها.

لكن سرعان ما هبت طبيعتها الصلبة لتقف موقف الدفاع. إن أيام القلق والحيرة تمتد أمامها، فبيير مريض، وعطلة ألبرت الرسمية سوف تنقضي قريباً. ولن ينفع، لن ينفعها أن تضعف الآن وتنصت إلى أصوات سرية. أولاً يجب أن يستعيد بيير عافيته وأن يعود ألبرت إلى مدرسته ويرحل فيراغوث إلى الهند، وبعد ذلك سترى. عندئذ سيبقى هناك الكثير من الوقت أمامها لتتمرد على قدرها وتبكي حتى تنضب مقلتاها. أما الآن فلا معنى لفعل ذلك، ويجب أن لاتفعله، أبداً.

وضعت الإناء المحتوي على أزهار الإكليل على عتبة النافذة. وذهبت إلى غرفة نومها، وصبت بعض ماء العطر على منديلها ومسحت جبينها به، ثم تفحصت تصفيف شعرها الصارم الرقيق في المرآة، وتوجهت بخطى هادئة، محسوبة، إلى المطبخ لتعدّ شيئاً لطعام بيير.

بعد ذلك دخلت غرفة الطفل، وجعلته يجلس معتدلاً، متجاهلة إيماءات الاحتجاج، وراحت تطعمه مح البيضة بعناية ودون أن تبتسم. ثم مسحت له فمه، وقبلت جبينه، ومسدت على سريره. وأمرته أن يكون طفلاً مؤدباً وأن يخلد إلى النوم.

عندما عاد ألبرت إلى المنزل من نزهته، خرجت معه إلى الشرفة، حيث كانت المظلات المرتبة ذات الخطوط البنية والبيضاء ترفرف في وجه نسيم الصيف.

قالت له: «لقد زارنا الطبيب مرة أخرى، ويقول إنه لا خطب في أعصاب بيير ويجب أن نوفر له أكبر قدر من الهدوء. وأنا آسفة لأجلك، ولكن في الوقت الحالي ممنوع تماماً العزف على البيانو في المنزل. أعرف أن هذا صعب عليك يا بني. وربما يكون من الأفضل لك أن تبتعد بضعة أيام وتذهب إلى الجبال أو إلى ميونيخ، ما دام الجو جميلاً، ما رأيك؟ وبابا حتماً لن يعترض».

«شكراً، ماما، هذا لطف شديد منك. ربما أبتعد مدة يوم، ولكن لا أكثر فلن يكون معك أحد ليلازمك أثناء نوم بيير. ثم إن عليّ أن أبدأ واجبي المدرسي، فقد أضعت الكثير من الوقت حتى الآن. ليت بيير يستعيد عافيته بسرعة!».

«أنت طيب يا ألبرت. إني حتماً لا أقضي وقتاً مريحاً، وأنا سعيدة جداً لأنك موجود هنا. وأرى أن علاقتك بأبيك قد أخذت بالتحسن مؤخراً، أليس كذلك؟»

«آه، نعم، منذ أن قرر أن يرحل. ثم إنني لا أكاد أقابله. إنه يقضي يومه وهو يرسم. أتعلمين، أحياناً أشعر بالندم

لأني كنت غير مؤدب معه ـ آه، لا ريب في أنه قد سبب لي العذاب، ولكن ثمة شيئاً فيه دائماً يؤثر بي بقوة. إنه وحيد الجانب إلى حد بعيد، فهو لايعرف الكثير عن الموسيقا، لكنه فنان عظيم وقد نفّذ إنجاز حياته. وهذا ما أثر بي بقوة. إنه لايحصل على أي شيء من شهرته، ولا الكثير من ماله: إذ ليس هذا ما يسعى إليه».

كان يفتش عن الكلمات وهو مقطب الجبين. لكنه كان عاجزاً عن التعبير عن نفسه كما يرغب، على الرغم من أن شعوره كان واضحاً جداً. ابتسمت أمه ومسّدت على شعره إلى الخلف.

سألته ملاطفة: «هل نتعلم اللغة الفرنسية معاً مرة أخرى هذا المساء؟»

أومأ برأسه موافقاً ومن ثم ابتسم بدوره. وفي تلك اللحظة رأت كم كان سخيفاً منها بشكل لايصدق أنها قبل قليل فقط تاقت إلى أي مصير أفضل من أن تعيش من أجل ولديها.

15

قبيل الظهيرة، خرج روبرت قاصداً سيده عند حافة الغابة ليساعده في حمل أدوات الرسم خاصة. وكان فيراغوث قد أنهى دراسة جديدة ورغب في أن يحملها بنفسه. الآن بات يعرف بالضبط كيف يجب أن تكون عليه اللوحة وشعر أنه أصبح واثقاً من قدرته على الإحاطة بها في غضون بضعة أيام.

هتف بفرح، وهو يطرف بعينين متعبتين في وجه عالم الظهيرة الذي يبهر البصر: «سوف نخرج ثانية في صباح الغد».

فك روبرت أزرار سترته بتأن وأخرج قطعة من الورق من جيبه الداخلي. كان مظروفاً جعداً وبلا عنوان.

«هذا لك».

«وممّن؟»

«من الطبيب. لقد جاء بحثاً عنك عند الساعة العاشرة، لكنني أخبرته أنني لا أستطيع أن أبعدك عن عملك».

«أحسنت عملاً. والآن إلى الأمام سرّ!»

تقدمه الخادم بحقيبة الظهر، وكرسي المخيم، وحامل اللوحات... وتخلّف فيراغوث، وقد اشتبه بخبر سيء، وفتح

المظروف. لم يكن يحتوي إلا على بطاقة زيارة الطبيب مع رسالة خطّت على عجل وبخط قلم رصاص غير مقروء بوضوح: «أرجو أن تأتي لمقابلتي بعد ظهر هذا اليوم، أريد أن أكلمك عن بيير. إن توعكه ليس هيّناً كما فضّلتُ أن أخبر زوجتك. لا تعذب نفسك بقلق لامبرر له إلى أن تتوفر لنا فرصة التحدث».

كبح الرعب الذي هدد بحبس أنفاسه، وأرغم نفسه على الاحتفاظ بهدوئه، وأعاد قراءة الملاحظة بإمعان. «ليس هيناً كما فضّلتُ أن أخبر زوجتك!». ذاك هو العدو. إن زوجته لم تكن من النمط المرهف، الشديد الحساسية. الذي يجب حمايته من كل ظرف بغيض، وبعبارة أخرى، إن الوضع سيء. خطر، فقد يموت بيير. ومن ناحية أخرى، لقد أتى على ذكر «توعك» وهذا لا يدل على ضرر كبير. ومن ثم ذكر «قلق لامبرر له»، لايمكن أن يكون الوضع بالغ السوء. لعله مرض معد، أحد أمراض الأطفال. ولعل الطبيب يريد أن يعزله، أن ينقله إلى المستشفى.

كان كلما استطرد في التفكير ازداد هدوءاً. وشق طريقه بخطى متمهلة إلى المنزل، منحدراً التل ومخترقاً الحقول الحارة، وفي أية حال، سوف ينفذ كل ما يطلبه الطبيب ولن يدع زوجته تلاحظ أي شيء.

لكن في طريق عودته شعر بضيق في الصدر. وبدون حتى أن يتمهل ويضب لوحته ويغتسل، هرع إلى منزل العزبة، وأسند اللوحة الطرية الألوان على الجدار في بيت السلم، وولج بهدوء إلى غرفة بيير. وكانت زوجته ما تزال هناك.

مال على الصبي وقبّل شعره.

«صباح الخير يا بيير. كيف تشعر؟»

رسم بيير ابتسامة واهنة. وبعد ذلك مباشرة بدأ يتنشق، وارتعشت منخراه، وصرخ: «لا، لا، ابتعد! رائحتك كريهة جداً».

تراجع فيراغوث طائعاً. قال: «إنها مجرد تربنتينة يا بني. إن البابا لم يغتسل بعد لأنه كان متعجلاً ليراك. والآن سأذهب وأبدل ملابسي وسأعود حالاً. حسناً؟»

غادر المنزل، وأخذ اللوحة في طريقه؛ وصوت الطفل الكئيب مايزال يتردد في أذنيه.

على مائدة الطعام سأل عما قاله الطبيب وسرّه أن يسمع أن بيير قد تناول الطعام وأنه لم يتقيأ ثانية. ومع ذلك شعر بالإضطراب والقلق وجاهد كي يواصل حديثه مع ألبرت.

بعد انتهاء وجبة الغداء جلس فترة نصف ساعة مع بيير، الذي لزم الهدوء فيما عدا هنيهات نادرة كان خلالها يشد على جبينه بقوة متألماً. وكان فيراغوث يراقب بقلق حانٍ فمه الضيق، الذي بدا مضنى ورخواً، والجبين المشرق الوسيم، الذي أصبح الآن يحمل تغضناً رأسياً خفيفاً، تغضناً دالاً على المرض لكنه طفولي رقيق سيزول حالما يستعيد بيير عافيته. يجب أن يستعيد الطفل عافيته - وإن كان سوف يتألم عندئذ بشكل مضاعف لأنه سيرحل ويتركه. يجب أن يعيش ليكبر بجماله الصبياني، المشرق، المرهف وأن يتنفس كزهرة تستقبل أشعة الشمس، حتى وإن ودّعه والده وقدّر له أن لا يراه بعد ذلك. يجب أن يستعد عافيته ويغدو رجلاً وسيماً، يتفجر صحة، يستمر من خلاله أنقى وأشد ما يتصف به والده حساسية.

بينما كان جالساً بجوار سرير الطفل، انتاب فيراغوث نذير شؤم بكل المرارة التي عليه أن يتذوقها قبل أن يتحقق كل ذلك. والتوت شفتاه وانقبض قلبه من وخز هذه الشوكة، ولكن عميقاً تحت كل معاناته وخوفه شعر بقراره، صلباً لا يقهر. إنه ثابت، لا تهزه الآلام ولا المعاناة، ولكن ما زال يتوجب عليه أن يعايش هذه المرحلة الأخيرة، وأن لا يتجنب أية معاناة، وأن يجرع الكأس حتى آخر نقطة، لأنه، خلال تلك الأيام القليلة الماضية، كان قد رأى بوضوح أن طريقه إلى الحياة يجب أن يمر من خلال هذه البوابة المظلمة. فإذا تصرف بجبن، وهرب من وجه المعاناة ونكص عنها، فسيأخذ معه عند رحيله القذف والسُم ولن يبلغ الحرية الصرف المقدسة التي تاق إليها ورغب في أن يستجلب عل نفسه كل أصناف العذاب من أجلها.

إذن، قبل أي شيء عليه أولاً أن يتحدث مع الطبيب. فنهض واقفاً وأومأ برأسه بحب كبير، ثم غادر الغرفة. وخطر له أن يدع ألبرت يوصله بالعربة، ولأول مرة خلال ذاك الصيف ولج غرفته. وقرع بقوة على الباب.

«ادخل!».

كان ألبرت جالساً عند النافذة، يقرأ. فقفز من تأثير المفاجأة وأقبل على أبيه.

«أريد أن أسألك معروفاً صغيراً يا ألبرت. هل لك أن توصلني إلى البلدة؟ ـ موافق؟ عظيم. إذن هلا نزلت إلى أسفل وعملت على سرج الحصانين ـ فأنا مستعجل. سيجارة؟».

«نعم، شكراً لك. سوف أعنى بأمر الحصانين في الحال».

سرعان ما استقلا العربة، وجلس ألبرت على الصندوق وتولى القيادة. وعند ناحية أحد شوارع البلدة، طلب منه فيراغوث أن يتوقف ثم استأذن منه بالرحيل مع بعض كلمات الاستحسان.

«شكراً لك، ألبرت. أنت تحرز تقدماً كبيراً، لقد أصبحت الآن تحسن الإمساك بزمام هذين الفرسين. حسن. إلى اللقاء، سأعود لاحقاً إلى المنزل سيراً على قدميّ.»

سار بخطى واسعة سريعة في شارع المدينة الحارة. وكان الطبيب يقطن في حي هادئ، حديث الطراز. وفي مثل ذلك الوقت من النهار لم يكن أحد خارج بيته. وكانت عربة رش الماء تتقدم بتكاسل؛ وثمة ولدان صغيران يهرعان خلفها، ويمدان أيديهما إلى الرذاذ الذي ترشه المرشة، ويرشش كل منهما وجه الآخر المحتقن من شدة الحر. وكان يتناهى إليه ضجيج تدرُّب متوانٍ على العزف على البيانو صادر من نافذة طابق أرضي ولطالما كره فيراغوث بقوة شوارع المدينة الموات، خاصة في فصل الصيف؛ كانت تذكره بأيام شبابه، عندما كان يسكن في مثل هذه الشوارع وينزل في غرف موحشة، رخيصة، تفتح على أروقة تعبق بروائح الطبخ والقهوة، وتطل على مشهد مؤلف من نوافذ عليات، ومناصب لرب السجاد، وحدائق صغيرة بشكل مثير للسخرية، تخلو من أي جمال.

في غرفة الانتظار، وسط لوحات كبيرة، بأطر مذهبة وسجاد سميك، اكتنفته رائحة طبيب تنم عن الكتمان وتناولت صبية ترتدي مئزر ممرضة ناصع البياض طويلاً بطاقته منه. فقادته أولاً إلى غرفة الانتظار، حيث كان عدد من النسوة

وشاب يجلسون هادئين وصامتين في أرائك ملبّسة بقماش الّلش، ينعمون النظر في مجلات؛ ومن ثم نقلته، بطلب منه، إلى غرفة أخرى، تحتوي عدداً كبيراً من أعداد صحيفة طبية مكومة فوق بعضها. وبالكاد أتيح له أن يتلفت حوله حين عادت الفتاة وقادته إلى غرفة مكتب الطبيب.

هناك جلس فيراغوث في أريكة كبيرة ملبّسة بالجلد، وسط جو من الفعالية والنظافة البراقة، وقبالته جلس الطبيب، وهو رجل قصير القامة مهيب الطلعة؛ ولم يكن يُسمَع في الغرفة ذات السقف العالي أي صوت ماعدا التكات الحادة المنظمة لساعة حائط لامعة صغيرة، كلها من الزجاج والنحاس.

«نعم، يا صديقي، أنا لست مطمئناً كثيراً حول حالة ولدك. ألم تفاجأ بعض الوقت بوجود ظواهر شاذة معينة، ونوبات صداع، وإرهاق، وفقدان الرغبة في اللعب، وما إلى ذلك؟ ـ فقط في الفترة القريبة؟ ثم هل هو شديد الحساسية منذ زمن طويل؟ ضد الضجيج والنور المبهر؟ وضد الروائح؟ ـ فهمت. هو يكره رائحة الألوان المنبعثة في محترفك! نعم، هذا كلام متطابق».

طرح أسئلة كثيرة جداً أجاب عنها فيراغوث، وعلى الرغم من أنه كان يبدو حذراً قليلاً إلا أنه كان يولي انتباهاً قلقاً وشعر بإعجاب خفي بتهذيب الطبيب المراعي لمشاعره، وأسلوبه المقتضب المعصوم عن الخطأ في الكلام.

ثم أخذت الأسئلة ترد ببطء وواحداً بعد آخر، وأخيراً انقطع الكلام طويلاً، خيم الصمت فوقهما مثل غيمة، ولم تقطعه

إلا التكة الحادة العالية النبرة لساعة الحائط الصغيرة الجميلة.

مسح فيراغوث التعرق عن جبينه، وشعر أنه قد حان الوقت لكي يعلم الحقيقة، وغلبه خوف مؤلم، صاعق، وهو يعي صمت الطبيب المروع. وأخذ يتلوى وكأن ياقة قميصه تخنقه، وأخيراً قال فجأة: «إلى هذا الحد الوضع سي؟»».

رفع الطبيب وجهه الشاحب، المرهق من التعب، وألقى عليه نظرة واهنة وهز برأسه إيجاباً «نعم، يؤسفني أن أقول هذا. إنه سيء يا هر فيراغوث».

لم يحول الطبيب عينيه، أخذ ينتظر بانتباه، ورأى لون الرسام يتحول إلى الشحوب ويترك يديه تتدليان. رأى شفتيه ترتخيان وترتعشان قليلاً والجفنين ينسدلان فوق العينين وكأنه في حالة إغماء. ثم رأى فم الرسام يستعيد صرامته وعينيه تومضان بإرادة جيدة. وحده الشحوب العميق بقي. وأدرك أن الرسام قد بات مستعداً للإنصات.

«ما الأمر، يا دكتور؟ لست مضطراً إلى أن تخفي عني أي شي. تكلم ـ أتعتقد أن بيير سيموت؟»».

قرّب الطبيب كرسيه قليلاً. وأخذ يتكلم بصوت شديد الهدوء، ولكن بنبرة قاطعة وواضحة. «إن هذا سؤال لا قدرة لأحد على الإجابة عنه. ولكن إذا لم أكن مخطئاً بشكل فادح، فإن ولدك الصغير مصاب بمرض خطير».

حدق فيراغوث إلى عينيه. قال: «هل سيموت؟ أريد أن أعرف إن كنت تعتبر أنه سيموت. أتفهم ـ أريد أن أعرف».

نهض الرسام واقفاً بحركة لا واعية وخطا إلى الأمام وكأنما مهدداً. فوضع الطبيب يده على ذراعه؛ فأجفل فيراغوث وغاص على الفور عائداً إلى كرسيه وكأنه شعر بالخجل.

باشر الطبيب بالقول «لا معنى للحديث بهذا الشكل. إن اتخاذ قرار الحياة والموت ليس في أيدينا. إننا معشر الأطباء نقابل مفاجآت في كل يوم وما دام يخفق في صدر المريض نفس، يظل يحدونا أمل في شفائه. أنت تعلم هذا؟ وإلا أين كنا؟».

أومأ فيراغوث برأسه بطول أناة موافقاً واكتفى بسؤاله: «ما هو إذن؟».

سعل الطبيب قليلاً:

«إذا لم أكن مخطئاً، فهو التهاب السحايا».

جلس فيراغوث بسكون تام وردد العبارة بهدوء؟ ثم نهض واقفاً ومد يده إلى الطبيب. قال، متكلماً ببطء شديد وحذر لأن شفتيه كانتا ترتعشان وكأنه مصاب ببرد شديد «إذن فهو التهاب السحايا. أليس له أي علاج؟».

«إن كل شيء قابل للشفاء، يا هر فيراغوث. إن رجلاً يأوي إلى سريره وهويعاني من ألم في سنه وإذا به يموت في غضون بضعة أيام، وآخر يعاني من كل أعراض أسوأ الأمراض وإذ به يبرأ منه».

«نعم، نعم. يبرأ منه! سأذهب الآن، هر دكتور. لقد عانيت الكثير من المتاعب بسببي. بعبارة أخرى، إن التهاب السحايا لا براء منه؟».

«عزيزي الهر...».

«سامحني. هل سبق واعتنيت ربما بأطفال آخرين يعانون من هذا الالتهـ... من هذا المرض؟ نعم؟ فهمت!... وهل ما زال أولئك الأطفال على قيد الحياة؟».

لزم الطبيب الصمت.

«ألم يبق منهم اثنان على قيد الحياة؟ أو واحد؟».

لا جواب.

التفت الطبيب إلى طاولة مكتبه، وكأنما تولاه الغيظ، وفتح أحد الأدراج.

قال بنبرة صوت مغايرة «يجب ألا تستسلم هكذا! نحن لا نعرف إن كان ولدك سيشفى. إنه في وضع خطر، ويجب أن نساعده بكل قوانا. علينا جميعاً أن نساعده، أتفهم، وأنت أيضاً. أنا بحاجة إليك ـ سوف أزور المنزل ثانية في هذا لمساء. وفي كل الأحوال، سأعطيك مسحوق النوم هذا، ربما احتجت إليه لنفسك. والآن اسمعني: على الطفل أن يحظى بأكبر قدر من الهدوء، وعلى طعام مغذٍ إلى أقصى حد. هذا أهم شيء. هل أعتمد عليك في ذلك؟».

«طبعاً. لن أنسى».

«إذا كان يعاني من الألم أو كان مضطرباً، فإن حماماً فاتراً أو كمادات تفي بالغرض . هل لديكم كيس ثلج؟ سأحضر لك واحداً. هل لديك ثلج هناك؟ عظيم. ـ سنبقى على الأمل، هر فيراغوث. لن يفيد أياً منا أن نقنط الآن، وعلينا جميعاً أن ندرك مهامنا. موافق؟».

أجاب فيراغوث بإيماءة تنم عن ثقة بالطبيب. وأوصله الطبيب حتى الباب.

«هل ترغب في استقلال عربتي؟ لن أحتاجها حتى الخامسة».

«لا. شكراً لك. سأمشي».

نزل إلى الشارع، وكان قفراً كما عهده قبلاً. وكان صوت التدرب على العزف على البيانو الكئيب ما يزال ينبعث من النافذة المفتوحة؟ ونظر في ساعة يده، لم تمض غير نصف ساعة. راح يتقدم ببطء، متنقلاً من شارع إلى شارع، في مسار متعرج تخلل نصف المدينة. كان يخشى أن يغادرها. هنا في هذه الأكوام البائسة، الحمقاء، من المنازل، كانت رائحة الأدوية والمرضى، والأسى والخوف والموت تجد لها مرتعاً، ومئة شارع مقبض للصدر مثير للشفقة يساعد على تحمل أي همّ، ويشعر المرء أنه ليس وحيداً. أما هناك، تحت الأشجار والسماء الصافية، وسط رنين المناجل وسقسقة الجداجد، فقد رأى أن التفكير في كل ذلك سيبدو أكثر فظاعة، وعبثاً، وإشاعة لليأس في النفس.

عندما وصل إلى المنزل، وقد علاه الغبار وأنهكه التعب، كان المساء قد حلّ، وكان الطبيب قد عرّج عليهم، لكن فراو أديل كانت هادئة وبدا أنها لا تعرف شيئاً.

على مائدة العشاء تحدث فيراغوث مع ألبرت عن الخيول. وكان عند كل نقطةِ تحُولٍ في الحديث يفكر في شيءٍ ما يقوله، وينضم إليه ألبرت . وقد لاحظا أن البابا مرهق جداً، ولا أكثر. لكنه ظل يفكر بمرارة تكاد تنم عن ازدراء: كان يمكن أن يكون الموت متمثلاً في عينيّ، ومع ذلك ما كانا

ليلاحظا! هذه هي زوجتي وهذا هو ولدي! وبيير يحتضر! وهذه الأفكار تدوِّم في رأسه وتقبض على صدره في حين أن لسانه المتخشب يشكل كلمات لا تثير اهتمام أحد. ولكن بعد ذلك خطرت له فكرة جديدة: وهي أفضل بكثير! بهذه الطريقة سوف أجرع معاناتي وحتى آخر قطرة حنظل. سوف أجلس هنا، متظاهراً، وأراقب صغيري المسكين يحتضر. وإذا ما بقيت على قيد الحياة بعد ذلك، لن يتبقى هناك ما يربطني بالمكان، ولا شيء يؤلمني؛ عندئذ سوف أرحل ولن أعود إلى الكذب ما دمت حياً، ولن أؤمن بعد ذلك بالحب، وأبداً لن أماطل وأجبن... عندئذ سأعيش وأعمل وأسير قدماً، ولن يكون هناك بعدئذٍ طمأنينة ولا جمود.

شعر بابتهاج قاتم بالمعاناة المضطرمة في قلبه، عنيفة ولا تحتمل، لكنها نقية وعظيمة، هي إحساس لم يكن قد خبره من قبل، وفي حضرة اللهب القدسي تراءت له حياته الضيقة، الموحشة، المخادعة والمشوهة تتضاءل لتغدو تافهة، غير جديرة بالتفكير فيها أو حتى بوضع اللوم عليها.

داخل إطار هذه الأفكار جلس مدة ساعة في غرفة الطفل المريض شبه المعتمة وأمضى ليلة مضطرمة أرقة في سريره، مستسلماً باتقاد إلى حزنه الناهش، لا يرغب في شيء ولا يأمل في شيء، وكأنه يتمنى لو تنهشه هذه النار وتحرقه حتى آخر نسيج مرتعش. وأدرك أن هذا ما يجب أن يكون، وأن عليه أن يتخلى عن أعزّ وأفضل وأنقى ما يملك، وأن يشهد موته.

16

كان ببير يتألم. جالَسَهُ والده تقريباً طوال النهار. وكان الطفل يعاني من صداعٍ دائم؛ وكانت أنفاسه متسارعة، وكل نفس كان أنيناً وقصيراً مكَرُوباً. أحياناً كان جسده الضئيل والنحيل تهزه ارتعاشات قصيرة أو يتصلب ويتقوس. ثم همد تماماً فترة طويلة، وأخيراً إنتابه تثاؤب مصحوب بتشنج. ومن ثم نام مدة ساعة، وعندما أفاق، عاد التنهد المنتظم، الحزين نفسه مع كل خفقة نفس.

لم يسمع ما قيل له وعندما رفعوه تقريباً بالقوة ووضعوا الطعام في فمه، أكله بلا مبالاة آلية. أسدلت الستائر بإحكام وفي النور الخافت جلس فيراغوث مدة طويلة مائلاً فوق الطفل يراقبه، يتابع بقلب متجمد كيف تتلاشى كل مسحة عذوبة رقيقة بعد أخرى عن وجه الطفل الجميل الأليف، حتى يختفي تماماً، وما تبقى كان وجهاً شاحباً، شاخ قبل الأوان، قناعاً مخيفاً بقسمات مُبسَّطة، لا يرتسم عليها غير تعبير الألم والامتعاض والرعب الرهيب.

أحياناً، بعد أن يغص الطفل، يرى الوالد الوجه المشوه يتراخى ويستعيد لمسة من فتنته الضائعة، ثم أخذ يحدق بثبات، بكل ما يتصف به حبه من اتقاد نهم، ويعيد الكرة

ويستزيد من النظر ليطبع هذا الجمال المحتضر على صفحة ذاكرته، ثم خيل إليه أنه لم يكن قد عرف في حياته كلها معنى الحب، لم يعرفه قط حتى لحظات التأمل هذه.

مرت فترة طويلة لم تشتبه خلالها فراو أديل بأي شيء؛ ولم تنتبه إلى توتر فيراغوث وشروده الغريب إلا بالتدريج وفي آخر الأمر تصاعدت شكوكها، لكنها لم تعرف الحقيقة إلا بعد مرور أيام عديدة. فذات أمسية ولدى مغادرته لغرفة بيير تنحت به جانباً وقالت بفظاظة، بنبرة صوت مهينة، موجعة: «حسن، ما حقيقة حالة بيير؟ ما الأمر؟ أشعر أنك تعرف شيئاً».

نظر إليها كأنما من مكان بعيد جداً، وقال بشفتين جافتين «لا أدري، يا طفلتي. إنه شديد المرض. ألا ترين؟».

«أرى.وأريد أن أعرف طبيعته! إنك تعامله وكأنه يحتضر - أنت والطبيب. بماذا أخبرك؟».

«قال لي إن الوضع سيء وإن علينا أن نوليه عناية دقيقة جداً. إنه أشبه بالتهاب في رأس الصغير المسكين. غداً سنطلب من الطبيب أن يعطينا تفاصيل أكثر».

اتكأت على خزانة الكتب، ورفعت إحدى يديها لتتشبث بتضاعيف الستارة الخضراء اللون التي تعلوها. ولم تقل أي شيء ووقف هو في مكانه بصير؛ كان وجهه شاحباً وعيناه ملتهبتين. وكانت يداه ترتشعان قليلاً، وحافظ على التحكم بنفسه وقد ارتسم شبه ابتسامة، أو ظل غريب من الإذعان، والصبر، والتهذيب.

اقتربت منه ببطء، ووضعت يدها على ذراعه وبدت كأن

ركبيتها لا تقويان على حملها، وهمست له بصوت شديد الخفوت:

«أتظن أنه سيموت؟».

ظل فيراغوث محتفظاً بالابتسامة الواهنة الحمقاء على شفتيه، لكن قطرات صغيرة من الدمع انحدرت مسرعة على وجهه، واكتفى بهز رأسه بحركة ضعيفة إيجاباً، وعندما تراخت وفقدت تماسكها وكادت تسقط، رفعها وساعدها على الجلوس على أحد الكراسي.

قال ببطء وارتباك، وكأنه يكرر بامتعاض إلقاء درس قديم قد صبره معه منذ زمن طويل «إننا لم نتأكد بعد. يجب أن لا نفقد عزيمتنا».

كرر بعد قليل بطريقة آلية، عندما استعادت قواها وعادت لتستقيم في جلستها «يجب أن لا نفقد عزيمتنا».

قالت: «نعم، نعم، معك حق». وبعد قليل عادت تقول «مستحيل! مستحيل!».

فجأة نهضت واقفة، وقد تأججت عيناها بالحيوية وأُترع وجهها بالفهم والحزن. قالت بصوت عال «أنت لن تعود، أليس كذلك؟ أعرف هذا. سوف تغادرنا».

أدرك بوضوح أن هذه اللحظة لا يجوز فيها أي زيف. فأسرع يقول بنبرة مجردة «نعم».

هزت رأسها وكأن عليها أن تفكر بتركيز شديد وكانت عاجزة عن تقبُّل الأمر كله. لكن ما قالته عندئذ لم يكن نتاج تفكير؟ بل تدفق دون وعي منها بفعل أسى اللحظة، القاتم، اليائس، والإرهاق والإحباط، وأكثر من كل هذا، بإلحاح من

حاجةٍ غامضةٍ إلى إصلاح شيء ما إلى أن تبدي عطفاً لإنسان ما زال منفتحاً على العطف.

قالت «هذا ما حسبته. ولكن اسمعني يا يوهان. يجب أن لا يموت بيير. يجب أن لا ندع كل شيءينهار الآن هكذا فجأة! ثم أتدري... ثمة أمر آخر أود أن أخبرك به: إذا ما شفي، سوف تحصل عليه. أتسمع؟ سوف يمكث معك».

لم يفهم فيراغوث على الفور. لم يستوعب إلا بالتدريج ما قالت ويدرك أن ما تصارعا من أجله، ما دفعه إلى التردد والمعاناة طوال سنين عديدة، قد مُنح له الآن بعد فوات الأوان.

لقد رأى أن من السخف الفاضح فقط أن يحصل الآن وفجأة على شيء طالما حُرِّم عليه، بل أكثر من ذلك أن يصبح بيير له في هذه اللحظة بعد أن حُكم عليه بالموت. فالطفل الآن، بالنسبة إليه، ميِّت لا محالة! إنه لأمر جنوني، سخيف! بل إنه من الغرابة والعبث بحيث يكاد ينفجر في ضحك مرير.

لكنها كانت جادة فيما قالت بلا ريب. كان واضحاً أنها لا تصدق أن بيير سيموت. وما دفعها إلى أن تبدي العطف، أن تقدم تضحية كبرى، وسط فوضى اللحظة المؤلمة، هو دافع غامض صادق. لقد رأى مبلغ معاناتها، وضعفها، والجهد الكبير الذي بذلته لتستقر على قدميها. وعليه أن لا يُظهر لها أنه يعتبر تضحيتها، وكرمها الغريب المتأخر بمثابة سخرية قاتلة.

كانت تنتظر سماع كلمة واحدة منه بفارغ الصبر، لِمَ لا يقول شيئاً؟ ألا يصدقها؟ أم أنه قد بات من فرط الاغتراب بحيث إنه لم يعد يرغب في أن يقبل أي شيء منها، ولا حتى هذا، أكبر تضحية يمكن أن تقدمها له؟.

بدأ وجهها يرتعش خيبة، وإذا به يستعيد أخيراً تحكُّمه في نفسه. فتناول يدها، ومال، ولمسها بشفتيه الباردتين، ثم قال: «شكراً لك».

ثم خطرت بباله فكرة فأضاف بنبرة أكثر وداً: «ولكني الآن أريد أن أعتني ببيير. دعيني أسهر معه الليلة».

قالت بصرامة: «سوف نتناوب».

في تلك الليلة كان بيير هادئاً جداً، وقد تُركَ مصباح صغير مضاء على الطاولة؛ ولم يكن ضوءه الخافت يملأ الغرفة لكنه كان يضيّع سبيله في منتصف الطريق إلى الباب على شكل شفق بنيّ اللون. ظل فيراغوث ينصت فترة طويلة إلى تردد أنفاس الصبي، ثم تمدد على الصوفا الضيقة التي طلب نقلها إلى الغرفة.

عند نحو الساعة الثانية صباحاً استيقظت فراو أديل، وأشعلت ضوءاً ونهضت. ارتدت مبذلها، وحملت شمعة، وتوجهت إلى غرفة بيير. فوجدت كل شيء هادئاً. خفقت رموش عينيّ بيير قليلاً حالما لامس الضوء وجهه، لكنه لم يستيقظ. وعلى الصوفا كان زوجها نائماً وهو بكامل ملابسه وشبه ملتفّ حول نفسه.

تركت الضوء يسقط أيضاً على وجهه، ووقفت فوقه بضع دقائق. ورأت وجهه مجرداً من الإدعاء، بكل تجاعيده وشعره الشائب، ووجنتيه المتراخيتين وعينيه الغائرتين.

قالت في نفسها مع مزيج من الشفقة والرضا: «لقد تقدم كثيراً في السنّ»، وشعرت برغبة في التمسيد على شعره الشعث، لكنها لم تفعل. غادرت الغرفة دون أن تحدث أي

ضجيج. وعندما عادت في الصباح، كان جالساً يقظاً منذ وقت طويل ومنتبهاً إلى جوار سرير بيير. ومن جديد كان فمه والنظرة التي حياها بها صارمين بفضل التصميم والقوة الخفية اللذين كانا يغلفانه منذ بضعة أيام كدرع.

بدأ يوم سيء بالنسبة إلى بيير. كان قد نام ردحاً طويلاً من الوقت بعينين مفتوحتين ثابتتي النظرة إلى أن أيقظته موجة جديدة من الألم، وأخذ يتقلّب بعنف في سريره، وهو يشد قبضتي يديه الصغيرتين ويضغطهما على عينيه؛ وكان وجهه يتقلب ما بين شحوب الموتى واحمرار اللهب. ثم أخذ يصرخ في ثورة عاجزة تعبيراً عن عذاب لا يحتمل؛ وصرخ طويلاً صراخاً تأسى له القلوب حتى أن والده الذي غلبه الوهن والانهيار، لم يجد مناصاً من مغادرة الغرفة لأنه لم يعد يقوى على التحمل.

أرسل في طلب الطبيب، الذي كان قد جاء مرتين في ذلك النهار وفي المساء أحضر معه ممرضة. وبعد ذلك بقليل فقد بيير وعيه، وأرسل الأب والأم الممرضة لتنام، وسهرا معه أثناء الليل وقد ازداد إحساسهما بأن النهاية قد باتت وشيكة. ولم تعد تند عن الطفل حركة وأضحى تنفسه غير منتظم لكنه قوي.

لكن فيراغوث وزوجته تذكرا الفترة التي كان فيها ألبرت مريضاً مرضاً شديداً وكيف اعتنيا به معاً. وشعرا معاً أنه لا يمكن تكرار تلك التجارب المهمة. وراحا يتبادلان الحديث همساً برفق يخيم عليهما الإرهاق، عبر سرير المريض، لكنهما لم يذكرا كلمة واحدة عن الماضي، وعن مرض ألبرت. لقد وجدا أن تشابه الموقفين مخيف، فهما الاثنان قد تغيرا، لم

يعودا هما نفساهما اللذان سهرا معاً عندئذ كما يفعلان الآن وتألما معاً، وهما يميلان فوق الطفل المريض المحتضر.

في تلك الأثناء، كان النوم يجافي ألبرت، الذي غمّه القلق المكبوت والخوف المتزايد في المنزل. وفي قلب الليل خرج على رؤوس أصابعه إلى الباب دون ارتداء كامل ملابسه، ودخل، وسأل بهمس متحمس إن كان ثمة مساعدة يمكنه تقديمها.

قال فيراغوث: «شكراً لك، ولكن ليس ثمة ما يمكن عمله. اذهب إلى سريرك وحافظ على صحتك».

لكن ألبرت لم يذهب، ثم قال لزوجته: «رافقيه ولازميه بعض الوقت لتواسيه».

أذعنت بسرور وشعرت أنها لفتة رقيقة منه أن يخطر هذا له.

لم تستجب إلى مناشدات زوجها باللجوء إلى النوم إلا في الصباح. وعند انبلاج الفجر ظهرت الممرضة وخفّفت عنه. ولم يكن قد طرأ أي تبدل على حالة بيير.

اجتاز فيراغوث أرض الرحبة بتردد، إذ لم تكن لديه رغبة باللجوء إلى النوم. لكن عينيه المحجرتين وإحساسه بارتخاء بشرته وخمودها أنذره بوجوب ذلك. فاغتسل في مياه البحيرة وطلب من روبرت أن يعد له القهوة. ومن ثم راح يتأمل دراسته للغابة في المحترف. كانت اللوحة تفيض بالرشاقة والنضارة، بيد أنها لم تكن بالضبط كما كان يرغب، وقد انتهى الآن أمر لوحته التي كان يخطط لإكمالها ولن يعود أبداً إلى الرسم في روسهالدة.

17

مرت أيام عدة لم يطرأ خلالها أي تغير على حالة بيير. وكانت تنتابه في اليوم الواحد نوبة أو اثنتين من تشنجات الألم وتقلصاته؛ أما في بقية الوقت فكان يرقد واهن الأحاسيس في حالة من شبه النوم. وكان الطقس الدافيء قد اهترأ بفعل سلسلة من العواصف، وفقدت الحديقة والعالم تألقهما الصيفي الغني تحت وطأة هطل الرذاذ المتواصل.

أخيراً أمضى فيراغوث ليلة في سريره ونام. وكان خلال الأيام القليلة الأخيرة يلازمة أرق محموم، والآن بينما هو يرتدي ملابسه والنافذة مفتوحة وعى فجأة بإصابته بالبرد المغمّ. فمال خارج النافذة وأخذ يستنشق هواء الصباح المعتم الماطر، وهو يرتجف قليلاً. وانتشرت رائحة التربة المبللة واقتراب الخريف، وأخيراً أخذ يفكر مندهشاً في أن هذا الصيف قد تلاشى بالنسبة إليه دون أن يخلّف أثراً، وهو الذي في المعتاد شديد اليقظة لحلول تباشير الفصول. خيل إليه أنه أمضى في غرفة بيير المريض شهوراً كاملة، وليس أياماً معدودة وليال.

ارتدى معطفه وانتقل إلى المنزل. ولما أبلغوه أن الطفل كان قد استيقظ في الصباح الباكر لكنه عاد فاستغرق في النوم قبل ساعة من الزمن، جلس مع ألبرت ليتناول طعام الإفطار.

كان ألبرت مهموماً كثيراً لمرض بيير، وإن حاول أن لا يظهر ذلك، وكان شديد الإنزعاج من جو المستشفيات المكبوت، ومن الاكتئاب والقلق السائدان من حوله.

بعد أن لجأ ألبرت إلى غرفته ليشغل نفسه بواجبه المدرسي، دخل فيراغوث ليعود بيير، فألفاه ما يزال نائماً، فاتخذ مجلسة بجوار سرير الطفل. وكان أحياناً، خلال الأيام الأخيرة، يتمنى أن تأتي النهاية بسرعة، على الأقل إكراماً للطفل، الذي لم يكن قد تفوه بكلمة واحدة يعلم الله منذ كم من الوقت والذي كان يبدو عليه فرط الاستنزاف والتقدم في العمر، وكأنه هو نفسه كان يعلم أنه ليس بالإمكان مساعدته. ومع ذلك لم يكن فيراغوث راغباً في أن تفوته ساعة واحدة لا يتشبث خلالها بعمود سرير المريض بوَلَه غيور. آه، كم من مرة جاءه بيير وألفاه متعباً ولا مبالياً، منغمساً في عمله أو غارقاً في تفكير مهموم، وكم من مرة كان ذهنه شارداً بعيداً وهو يمسك بهذه اليد الصغيرة بيده دون أن ينصت إلى كلمات الطفل، والتي أصبحت كل كلمة منها الآن كنزاً لا يقدر بثمن. إن كل هذا لا يمكن إصلاحه. والآن وذاك الطفل المسكين يرقد يعاني العذاب، يواجه الموت وحده بقلبه الصغير، المعطوب الأعزل، بعد أن حكم عليه أن يعاني خلال فسحة من بضعة أيام كل الألم الممض، وكل لوعة اليأس اللذين يُرعب بهما المرض والضعف، والتقدم في العمر، واقتراب الموت، القلب الإنساني ويسحقه، الآن بات يرغب في أن يلازمه دائماً وأبداً. يجب أن لا يغيب عنه وأن يفتقده ولو للحظة لئلا يحتاج الطفل إليه، فلعله يكون ذا عون ولو قليل له أو أن يبدي له شيئاً من الحب.

يا للعجب، ففي ذاك الصباح نال مكافئته. في ذاك الصباح فتح بيير عينيه، وابتسم له، وقال بصوت واهن، رقيق: «بابا!».

ضج قلب الرسام بالوجيب الهادر حين سمع أخيراً الصوت الذي طالما اشتاق لسماعه، والذي أضحى من الضعف والوهن، ينادي عليه ويتعرف إليه. منذ ردح طويل من الزمن لم يسمع ذاك الصوت، اللهم إلا وهو يئن ويغمغم بشكل فاجع في معاناة كليلة، حتى أنه ارتفع من فرط فرحه.

«بيير، حبيبي!».

مال فوقه بحنان وقبّل الشفتين الباسمتين. لقد بدا بيير أكثر نضارة وسعادة مما كان يأمل أن يراه ثانية، وكانت عيناه صافيتين ومنتبهتين، والتغضن العميق الذي كان ظاهراً بين حاجبيه كاد أن يختفي.

«ألا تشعر بتحسن يا ملاكي؟!».

ابتسم الصغير ورنا إليه كأنما مندهشاً. مدَّ الأب يده فوضع الطفل يده الصغيرة فيها، وكانت ضعيفة وأضحت الآن من الضآلة والشحوب والتعب.

«الآن ستتناول طعام إفطارك في الحال، وبعد ذلك سأحكي لك حكايات».

«أوه، نعم، عن السيد لا ركسبر والعصافير»، وبدا لوالده أنها معجزة أن يتمكن من التكلم والابتسام وأن يعود إليه.

جُلب له طعام إفطاره. وجلس بيير يأكل بشهية بل إنه سمح له أن يتزلّفه لكي يأكل بيضة ثانية. ثم طلب إحضار كتابه المصوَّر المفضَّل. وأزاح والده إحدى الستارتين بحذر جانباً،

ليدخل نور النهار الممطر الشاحب، وحاول بيير أن يستقيم في جلسته ويتفرج على الصور. ولم يبد أن الجهد المبذول قد سبَّب له أي ألم، وتفحص عدداً من الصفحات بإمعان وأبدى ابتهاجه وحبه للصور بصرخات فرح قصيرة. ثم شعر بالملل من طول الجلوس وبدأت عيناه تؤلمانه قليلاً. وترك والده يمدده مرة ثانية وطلب منه أن يقرأ له بعض الشعر، خاصة ذاك الذي يحكي عن الخيارة الزاحفة التي تذهب لمقابلة الدبق الطبي:

«أيها الدبق الطبي،

أوه، اسعفني بمراهمك!

لا أستطيع أن أروح، ولا أستطيع أن أجيء،

مفاصلي كلها تؤلمني!»

بذل فيراغوث أقصى جهده لكي يقرأ بأقصى ما في مقدوره من المرح والمزاح، وابتسم بيير ممتناً. ولكن الأبيات الشعرية كانت قد فقدت زخمها القديم، وكأن بيير قد كبر سنوات عديدة منذ أن سمعها آخر مرة. وأضاءت الصور والأبيات الشعرية ذكريات عن أيام كثيرة مشرقة، تضج بالضحك، لكن المتعة القديمة وجذل القلب لا يمكن أن يعودا، وبدأ بيير، لتوه، وبدون وعي منه، يستعيد أيام طفولته التي كانت ما تزال واقعاً حتى قبل أيام قليلة وأسابيع، استعادها بتوق البالغين وحزنهم، إنه لم يعد طفلاً. إنه مريض تسرب منه عالم الواقع، وأضحت روحه مستبصرة، شعرت بحضور الموت المترصد له من كل جانب.

ومع ذلك، كان ذاك الصباح مترعاً بالإشراق وبالهناء

بعد كل تلك الأيام الرهيبة. وكان بيير هادئاً وسعيداً وشعر فيراغوث رغماً عنه بلمسة الأمل تعاوده مرة بعد أخرى. ألم يصبح ممكناً الآن أن يظل بيير على قيد الحياة؟ عندئذ سيصبح ملكه؛ له وحده!.

جاء الطبيب ومكث فترة طويلة بجانب سرير بيير لكنه لم يعذبه بطرح أسئلته عليه أو بفحصه. ولم تظهر فراو أديل، التي كانت قد اشتركت مع الممرضة في سهر الليلة الفائتة. وغمرها السرور لحصول التحسن غير المتوقع، وشدت على يد بيير بقوة حتى تألم، وبذلت جهداً لتكبح دموع الارتياح التي انهمرت من عينيها. وسمح أيضاً لألبيرت بالدخول والمكوث فترة وجيزة.

قال فيراغوث للطبيب: «إنها لمعجزة، ألست مندهشاً؟».

هز الطبيب رأسه موافقاً ورسم ابتسامة ودية. وهو لم يقل لا، لكنه أيضاً لم يظهر أي حماسة ضافية. وعلى الفور أغار الشك على الرسام. وراح يمعن النظر إلى الطبيب ووجد أن التركيز البارد والقلق المكبوح كانا باديين في عينيه، على الرغم من الوجه الباسم. وفي وقت لاحق، استرق السمع من خلال شق في الباب إلى حوار الطبيب مع الممرضة، ومع أنه لم يفهم كلمة واحدة مما قيل، إلا أنه لم يستشف من نبرة همسهما القاسية، والمتجهمة، إلا الخطر.

أخيراً رافقه حتى عربته وفي الدقيقة الأخيرة سأله: «أعتقد أنك لا تأمل الكثير من هذا التحسن؟».

التفت الوجه القبيح، المتمالك لتعابيره، إليه، وقال: «إحمد ربك لأنه ما زال أمام ذاك الطفل الصغير المسكين بضع ساعات سعيدة! دعنا نأمل أن يطول أمدها أكثر».

لم يكن يُستشفّ من العينين الحاديتن أي بارقة أمل.

بسرعة، ولكي لا يضيع أي لحظة، عاد إلى غرفة المريض. كانت فراو أديل تحكي حكاية «الجمال النائم»؛ فجلس إلى جوارها وراح يراقب قسمات وجه بيير وهي تتابع القصة.

سألت فراو أديل «أأحكي لك حكاية أخرى؟».

قال بشيء من الضجر: «لا، فيما بعد».

مضت لتعطي أوامرها في المطبخ وأمسك فيراغوث بيد الصبي. وكان الاثنان صامتين لكن بيير كان بين حين وآخر يرفع بصره وهو يرسم ابتسامة، وكأنه سعيد لأن والده موجود معه.

قال فيراغوث برقة: «أنت الآن أفضل حالاً بكثير».

احمر وجه بيير قليلاً، وتحركت أصابعه عابثة في يد والده. قال: «أنت تحبني، يا بابا، أليس كذلك؟».

«طبعاً أحبك، يا حبيبي. أنت ابني العزيز، وعندما ستستعيد عافيتك سنظل معاً دائماً».

«آه نعم، بابا... ذات مرة كنت في الحديقة وكنت وحدي، ولم يعد أحد منكم يحبني. يجب أن تحبوني كلكم ويجب أن تساعدوني عندما أتألم ثانية. أوه، ما أبشع الألم!».

كانت عيناه نصف مغمضتين وكان يتكلم بهدوء شديد حتى أنه كان على فيراغوث أن ينحني أقرب من فمه ليفهم ما يقول.

«يجب أن تساعدوني. سأكون طيباً، دائماً، ويجب أن لا

تعنفوني، لن تعنفني أبداً، أليس كذلك؟ ويجب أن تطلب هذا أيضاً من ألبرت».

ارتعش جفناه وانفتحا، لكن النظرة التي في عينيه كانت قاتمة وبؤبؤا عينيه كانا واسعين جداً.

«نم، يا ولدي، نم. أنت متعب. نم، نم، نم».

أغمض فيراغوث عينيّ بيير برفق وراح يهمهم له بصوت خافت كما اعتاد أن يفعل عندما كان لا يزال وليداً. وبدا أن الطفل قد استغرق في النوم.

بعد ذلك بساعة دخلت الممرضة لتدعو فيراغوث إلى المائدة وتخفِّف عنه الجلوس بجانب سرير بيير. فتوجه إلى غرفة الطعام، وبصمت وشرود تناول صحناً من الحساء، ولم يكد يسمع ما يقال من حوله. وتردد صدى همسات الطفل، الرقيقة، ألخائفة، المحبة، عذباً في أذنية. آه، كم كان يمكن أن يتحدث مع بيير هكذا، مستمتعاً بثقة حبه الخالي من الهم، الساذجة، لكنه أهمل ذلك.

مد يده بحركة آلية إلى الإبريق الزجاجي ليصب ماءً ويشرب. وعندئذ إذا بحلمه يتهشم بصرخة ثاقبة قادمة من جهة غرفة بيير. فقفز الثلاثة دفعة واحدة وقد شحبت وجوههم. وانقلب الإبريق، وتدحرج على الطاولة، ثم سقط على الأرض.

خلال لحظة كان فيراغوث قد أصبح خارج الغرفة ومن ثم في غرفة بيير.

صرخت الممرضة «كيس الثلج!».

لم يسمع شيئاً. لا شيء غير تلك الصرخة الرهيبة،

اليائسة التي التصقت في وعيه كانغراز سكين في جرح. واندفع إلى السرير.

كان بيير متمدداً، شاحباً بلون الثلج، وقد انحرف فمه بشكل فظيع، وأخذت أطرافه المهزولة تنتفض بتشنجات عنيفة، وحدقت عيناه في تعبير رعب هائل. وفجأة أطلق صرخة أخرى، أشد ضراوة وقوة من الأخيرة، وقد تقوس جسده نحو الأعلى بحركة عنيفة جداً حتى أن أعمدة السرير اهتزت؟ ثم انخفض وعاد فارتفع من جديد، وهو متوتر من فرط الألم وانحنى مثل سوط في يد فتى غاضب.

وقف الجميع في حالة من الرعب، إلى أن خلقت أوامر الممرضة النظام، وركع فيراغوث عند السرير وحاول أن يمنع بيير من إيذاء نفسه خلال نوبات تشنجه. ومع ذلك، أخذت يد الطفل تضرب على الحافة المعدنية للسرير حتى نزفت. ثم همد، وانبطح على بطنه، وكان يعض بصمت في الوسادة، وبدأ يركل بساقه اليسرى بحركات منتظمة، فكان يرفعها، ثم يخفضها بحركة ثقيلة، ثم يرتاح برهة، وبعد ذلك يقوم بالحركة نفسها من جديد، عشر مرات، عشرين مرة، وهكذا.

كانت النسوة منهمكات في إعداد الكمادات. وأُبعد ألبرت عن المكان. وكان فيراغوث ما يزال راكعاً على ركبتيه، يراقب ساق الطفل وهي ترتفع بحركة غير منتظمة غريبة من تحت الملاءة، ثم تمتد وتسقط. هذا هو الطفل الذي كانت ابتسامته حتى قبل بضع ساعات خلت مثل سطوع الشمس، ولمست بربرته الطفولية المتوسلة، المحبَّة، شغاف قلبه وفتنته، حتى أعماقه، ها هو، لم يعد أكثر من جسد يرتعش بحركات آلية، حفنة مسكينة، عاجزة، من الألم والبؤس.

صرخ يائساً: «نحن هنا معك. ببير، يا ولدي، نحن هنا ونحاول أن نساعدك».

لكن الدرب المؤدي من شفتيه إلى عقل الطفل كان مقطوعاً، وكلمات المواساة المناشدة، وهمساته الرقيقة الخالية من المعنى لم تعد تنفذ إلى العزلة الرهيبة التي تحيط بالطفل المحتضر. لقد كان بعيداً نائياً في عالم آخر، يتجول عطشاً حتى الجفاف في جحيم العذاب والموت، ولعله هناك، في وادي الجحيم، كان يصرخ هاتفاً للرجل نفسه الراكع عند سريره، الذي يود بكل سرور أن يتحمل كل عذاب ليعين الطفل.

كلهم كانوا يعلمون أن تلك هي النهاية. فمنذ أن سمعوا تلك الصرخة الرهيبة الأولى، المترعة بمعاناة حيوانية عميقة، والموت يترصد في كل نافذة وممر باب من المنزل. لم يأت على ذكره أحد، لكن الجميع أدركوا وجوده، ألبرت أيضاً، والخادمات في الطابق السفلي حتى الكلب، الذي راح يتراكض مضطرباً في المكان على الممشى المحصّى، ويطلق بين حين وآخر أنيناً دالاً على الخوف. وعلى الرغم من أنهم جميعاً بذلوا كل ما في وسعهم، غلوا الماء، وأحضروا الثلج، وظلوا منهمكين في العمل، فقد كانت المعركة قد حسمت، وفقد كل أمل.

كان ببير قد غاب عن الوعي. وأخذ جسمه يرتعش كأنما من البرد، وكان بين فينة وأخرى يطلق صرخة هذيان ضعيفة، ويكررها مرة بعد أخرى، وبعد فترة توقف جراء الإرهاق، عادت ساقه لترفس ومن ثم تسقط بثقل، بحركة منتظمة وكأنما صادرة عن آلة.

هكذا مرت فترة ما بعد الظهر والمساء وأخيراً الليل. ولم يستنزف المقاتل الصغير قواه إلا في الصباح، واستسلم للعدو، وتبادل الأبوان نظرة خرساء من عيون لم تعرف النوم. ووضع يوهان فيراغوث يده على قلب بيير ولم يشعر بأي وجيب، وترك يده مستقرة على صدر الطفل الغائر إلى أن فقد حرارته ثم صار بارداً.

عندئذ مسَّد برقة على يديْ فراو أديل المتشابكتين وهمس لها: «انتهى الأمر»، وهو يقود زوجته خارج الغرفة، ويسندها وينصت إلى نشيجها المبحوح؛ وبينما كان يودعها بين يدي الممرضة أنصت إلى باب غرفة ألبرت ليتبين إن كان يقظاً؛ وعندما عاد إلى بيير ومدده على طوله في سريره، شعر أن نصف حياته قد نفق وغاب في الراحة الأبدية.

قام بما يلزم بكل رباطة جأش. وأخيراً ترك الطفل المتوفى للممرضة ثم استلقى ليأخذ قسطاً قصيراً من النوم العميق، وعندما أشرقت شمس النهار الكاملة ونفذت من النوافذ، استيقظ، ونهض من فوره، وقام بآخر عمل كان ينوي أن يقوم به في روسهالدة. فتوجه إلى غرفة بيير وأزاح كل الستائر، سامحاً لضوء الخريف البارد أن يسطع على وجه حبيبه الشاحب الصغير وعلى يديه المتصلبتين. ثم جلس إلى جوار السرير ووضع أمامه صحيفة من الورق، وأخذ يرسم وللمرة الأخيرة القسمات التي كان قد دقق فيها كثيراً، وعرفها جيداً وأحبها منذ أول تميُّزها الرقيق، والتي أنضجها الموت الآن وبسَّط تقاطيعها، غير أنها كانت ما تزال مفعمة بمعاناة مبهمة.

18

كانت الشمس تسطع حمراء نارية من خلال أهداب السحب المنهكة، المفرغة من مطرها، عندما اتجهت العائلة الصغيرة عائدة إلى المنزل بعد انتهاء جنازة بيير، جلست فراو أديل منتصبة في العربة؛ وقد بدا وجهها، الذي نضب من بكائه، مشرقاً بشكل غريب وصارماً وهو يطل من بين قبعتها السوداء وثوبها الأسود الأنيق. وكانت عينا ألبرت منتفختين وكان طوال الطريق يمسك بيد أمه.

قال فيراغوث، في محاولة للترويح عنهما «إذن ستغادران غداً. لا تقلقا حول أي شي، سوف أسهر على إنجاز كل ما يتوجب عمله، تماسك، يا بني».

في روسهالدة، ترجلوا من العربة، وكانت أغصان أشجار الكستناء التي تقطر تتلألأ تحت الضوء. فولجوا المنزل الصامت، وقد بُهرت أبصارهم، وهناك كانت الخادمات، مرتديات ملابس الحداد، يتهامسن أثناء انتظارهن. وكان فيراغوث قد أقفل باب غرفة بيير.

كانت القهوة قد أعدت وجلس الثلاثة على المائدة.

قال فيراغوث: «حجزت لكما غرفتين في مونترو. حاولا أن تقضيا وقتاً ممتعاً. أنا أيضاً سأرحل، حالما أنتهي من عملي هنا. سوف يبقى روبرت هنا ويدير شؤون المنزل.

وسأترك عنواني لديه».

لا أحد ينصت لما يقوله؛ كان يثقل عليهم جميعاً خواء عميق. رازح كالصقيع، وكانت نظرة فراو أديل مثبتة في الفراغ وأخذت تجمع الفتات عن مفرش المائدة. لقد انغلقت على حزنها، ونأت بنفسها عن أي تحريض، وحذا ألبرت حذوها. والآن، بعد أن توفي الصغير بيير، تلاشى أضأل أثر للوحدة في العائلة، تماماً كما تلاشت مظاهر التهذيب التي تأمنت بمجهود إرادي عن وجه الرجل حالما رحل ضيف يُخشى جانبه وقوي النفوذ. فيراغوث وحده ارتفع فوق الظروف، وهو يقوم بدوره ويحتفظ بقناعه حتى آخر لحظة. وخشي أن تفسد ثورة انفعال نسائية رحيله عن روسهالدة، وكان في قرارة نفسه ينتظر بحماس لحظة رحيل الاثنين.

لم يشعر دهره بمثل تلك الوحشة التي شعر بها وهو جالس في غرفته الصغيرة في تلك الأمسية. وهناك في منزل العزبة كانت زوجته تحزم الأمتعة. وكان قد كتب رسائل، إلى بركهارت، الذي لم يكن قد علم بموت بيير، يعلن فيها عن وصوله؛ وإلى محاميه وإلى المصرف، يعطيهم فيها تعليماته النهائية. وبعد ذلك، بعد أن أزال ما على طاولة مكتبه، أسند رسمه لبيير المتوفى أمامه. إنه الآن راقد في باطن الأرض، وتساءل فيراغوث هل سيتمكن أبداً من أن يهب قلبه مرة أخرى لأي كان كما وهبه لبيير، أن يشارك أبداً أياً كان ويعمق معاناته. الآن بات وحيداً.

راح يتأمل الرسم مطولاً، الوجنتين المترهلتين، والجفنين المسدلين على عينين غائرتين، والشفتين الرقيقتين، والمضغوطتين، واليدين النحيلتين بشكل قاس.

ثم أقفل المحترف على رسمه، وأخذ معطفه، وخرج. كان الليل قد حل لتوه على الأرض الرحبة وكان السكون يخيم على كل شيء.

وبعيداً في المنزل كانت بضع نوافذ مضاءة؛ ولم تكن تهمه. ولكن تحت أشجار الكستناء السوداء، في التعريشة الصغيرة المشبعة بماء المطر على الممشى المحصّى، وفي حديقة الزهور، كانت ما تزال هناك نفحة من حياة وذكرى. هنا كان بيير قد عرض عليه ذات مرة ـ ألم يحدث ذلك قبل أعوام؟ ـ فأراً أسيراً، وهناك بجانب نبات القبس تحدث مع أسراب من الفراشات الزرق، واخترع أسماءً رقيقة وهمية للأزهار. هنا، بين خن الدجاج ووجار الكلب، على أرض المرج وعلى الممشى تحت أشجار الزيزفون، عاش حياته الطفولية ومارس ألعابه؛ هنا وجد ضحكه الطفولي، الحر، البهيج، وكل سحر طبيعته المستقلة، العنيدة، مرتعاً لهما. هنا، وبعيداً عن عيون الجميع، استمتع بمُتعهِ الطفولية، وعاش حكاياه الخرافية، ولعل الغضب انتابه أحياناً أو بكى عندما شعر أنه مهمل أو مُساءٌ فهمُه.

أخذ فيراغوث يتجول تحت جنح الظلام، ويقوم بزيارة كل بقعة تحتفظ بذكرى ولده الصغير. وأخيراً ركع عند كومة رمال بيير وبرّد يديه في الرمل الرطب. فقابلت يداه شيئاً خشبياً، وعندما التقطه، عرف فيه مجرفة الرمل الخاصة ببيير. وعندئذ انهار، خانته إرادته، ولأول مرة خلال تلك الأيام الثلاثة الرهيبة، استطاع أن يطلق العنان لدموعه.

في اليوم التالي أجرى حديثاً مع فراو أديل.

قال: «حاولي أن تتجاوزي الأمر، ولا تنسيى أن بيير

يخصني. كنت ستعطيه لي، وأشكرك مرة أخرى على ذلك. حتى عندئذ كنت أعلم أنه سيموت، لكنها كانت لفتة كريمة منك. والآن عيشي بالضبط كما تشائين، ولا تستعجلي أي شيء. احتفظي بروسهالدة في الوقت الحاضر، فقد تندمين إذا تسرعت في بيعها. سوف يمدّك الموثّق العام بالمعلومات، فهو يقول إن سعر الأرض المحيطة بالمكان هنا سيرتفع حتماً. أتمنى لك الحظ الحسن. لم يبق هنا ما يخصني ما عدا ما يحتويه المحترف، وسوف أعمل على إزالته لاحقاً».

«شكراً لك... وأنت؟ ألن تأتي إلى هنا أبداً؟».

«لا. لن يكون لذلك معنى. ثم أريد أن أقول ما يلي: «أنا لم أعد أضمر أي مرارة. أنا أعرف أن اللوم كله يقع عليّ».

«لا تقل هذا. أنت حسن النية، لكن ذلك يسبّب لي التعاسة. وها أنت الآن ستمكث وحدك. ولو أنه كان في إمكانك أن تحتفظ ببيير لكان ذلك حسناً. لكن الوضع كما هو ـ لا، ما كان يجب أن يحدث. إن اللوم يقع عليّ أيضاً، أعلم هذا...».

«إننا خلال الأيام القليلة الأخيرة حققنا كفّارة. فلا تقلقي، وكل شيء سيسير سيراً حسناً، وليس هناك حقاً ما يستحق الندم عليه، انظري، الآن أصبح ألبرت كله لك. وأنا، أنا لدي عملي. وهذا يجعل كل شيء محتملاً. وأنت أيضاً ستكونين أسعد حالاً مما كنت منذ سنين طويلة».

ران عليه صمت عميق حتى أنها هي أيضاً تحكمت في نفسها. أوه، ما أكثر الأمور، أمور كثيرة جداً، التي ترغب في أن تقولها، أمور ترغب في أن تشكره عليها، أو أن تعرضها عليه. لكنها رأت أنه على حق. فقد كان جلياً أنه يعتبر أن كل ما كانت ما تزال تشعر أنه حياة وحاضر بكل مرارته قد

أضحى لتوه ماضياً لا يكاد يُميَّز. ولم يبق أمامها إلا أن تحافظ على هدوئها وتدع الماضي للماضي. وهكذا أخذت تنصت إلى تعليماته بأناة وانتباه، وهي مندهشة لتفكيرة في كل شيء والإحاطة به من كل جانب.

لم تذكر كلمة واحدة عن الطلاق، فقد كان في الإمكان معالجة هذا الأمر في وقت ما في المستقبل لدى عودته من الهند.

بعد تناول طعام الغداء انطلقا إلى المحطة، وكان روبرت موجوداً هناك مع كل الحقائب، ووسط الضجيج وسخام القبة الزجاجية الهائلة أوصل فيراغوث الاثنين إلى مقصورتهما، وأحضر بعض المجلات لألبرت، وأعطاه بطاقة الأمتعة، وانتظر خارج النافذة إلى أن تحرك القطار. ثم خلع قبعته ولوح بها وتابع القطار بنظره إلى أن اختفى ألبرت من النافذة.

في طريق العودة إلى المنزل أخبره روبرت كيف فصم خطبته المتعجلة، استجابة لطلبه. وفي المنزل كان النجار ينتظر كي يقفّص رسومات فيراغوث الأخيرة. وكان رحيله سيتم أيضاً بعد أن يحزم أمتعته ويرسلها. لقد كان يتوق إلى الرحيل.

أنهى النجار عمله، وكان روبرت ينجز بعض الأعمال في منزل العزبة مع خادمة تخلفت؛ فغطيا الأثاث وأغلقا الأبواب والنوافذ.

أخذ فيراغوث يتجول في المحترف بخطى واسعة وبطيئة، ثم في غرف الجلوس فغرفة النوم. ومن ثم انتقل إلى الخارج. فدار حول البحيرة وجال في أرجاء الأرض الرحبة.

لقد كان قد قام بهذا المسير مئة مرة، ولكن اليوم بدا أن المنزل والحديقة، البحيرة والأرض الرحبة، يتردد في أنحائها ترجيع صدى الوحشة.

هبّت ريح باردة على أوراق الأشجار المصفرّة وجلبت معها غيوماً ممطرة جديدة صوفيّة الشكل بأرتال منخفضة العلو. ارتعش الرسام بتأثير البرد. الآن رحلوا جميعاً، لم يبق هناك من يوليه اهتمامه، من يراعيه، لا أحد هناك كي يضطر إلى أن يحتفظ أمامه برباطة جأشه، والآن فقط، في هذه الوحشة المصقعة، أصبحت الهموم وليالي الأرق، والحمى الرعاشة وكل الإرهاق المنهك للقوى يرزح بثقله عليه. شعر بهذا في أعماق قلبه، ليس فقط في عقله وفي عظامه. لقد انطفأت آخر قبسات نور الشباب والأمل؛ ولكن العزلة الباردة وخيبة الأمل القاسية لم تعد تخيفانه.

تابع سيره المتئد على طول الممرات الرطبة، وهو يحاول أن يتعقب خيوط حياته، التي لم يكن قد رأى نسيجها البسيط قط بمثل ذاك الوضوح. وقد أدرك بلا مرارة أنه قد سلك كل تلك الدروب بتهور. أدرك بوضوح أنه على الرغم من محاولاته المتكررة، وعلى الرغم من التوق الذي لم يفارقه قط، فقد مرّ بجنة الحياة مرور الكرام. إنه لم يعش قط حباً حتى أعمق أعماقه، حتى هذه الأيام الأخيرة. لقد عرف، بجوار سرير ولده المحتضر، الحب الحقيقي الوحيد، ولكن بعد فوات الأوان؛ عندئذ كان قد نسي نفسه، وتسامى فوقها. والآن سيغدو هو تجربته، كنزه الصغير المتواضع، ما حيا.

إن ما بقي له هو فنه، الذي لم يكن مرة واثقاً منه كما هو الآن. بقي له عزاء الإنسان الدخيل، الممنوع عليه أن يمسك

كأس الحياة ويجرعه حتى آخر قطرة، بقي له الهوى الغريب، الهادئ، ولكن الذي لا يُقَاوم في أن يرى ويراقب، ويشارك بكبرياءٍ سريةٍ في عمل الخلق. تلك كانت البقية الباقية من حياته الفاشلة وقيمتها، وحشة الغنى الهادئة وبهجته الباردة، ومن الآن فصاعداً سيكون اتّباع مسار ذلك النجم الخالي من أي التفافات هي قدره.

استنشق بعمق هواء أرض الرحبة، الرطب، ذا العبق الحاد، وكان مع كل خطوة يشعر أنه يدفع عنه الماضي كما يدفع الواصل إلى الشاطئ مركبه الشراعي الصغير ليبتعد به عنه، ولكن دون جدوى، وكان يُجري سبره الدقيق وتبصّره بتصميم، وراح يصبو إلى الحياة الجديدة بكل تحدٍ وحماسٍ منطوٍ على المغامرة، وقد عزم على أن تكون حياة بعيدة عن أكسير الحذر وقصر النظر بل بالأحرى ارتقاءً شجاعاً نحو العلى. وبعد ذلك استأذن غسق الشباب العذب بالرحيل، ربما بألم يزيد عما يحدث مع بقية البشر. وها هو الآن واقف في وضح النهار، عاجزاً ومتأخراً عن زمنه، وكان يعني بهذا أنه لن يضيّع بعد الآن ساعة ثمينة واحدة.

من إصدارات الدار

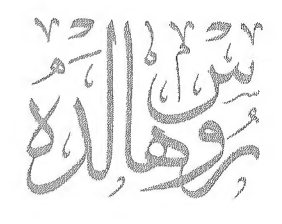
موسوعة الحرب الألكترونية: الجنرال أ. بالي	١٩٩٣
الرسائل المتبادلة بين المعري والشيرازي: علي خلوف	١٩٩٦
موليير (مسرح): أ. مولاتولي	١٩٩٤
حرية الآخر: جاد الكريم الجباعي	١٩٩٥
نرسيس وغولدموند (رواية): هرمان هسة	١٩٩٦
حوران عبر التاريخ: د. خليل مقداد	١٩٩٧
القرآن بين التفسير والتأويل: أنور خلوف	١٩٩٧

سيصدر عن الدار

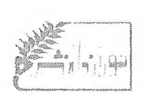
كاليجولا (مسرح): ترجمة يوسف جهماني	١٩٩٧
ما وراء الحجاب: فاطمة المرنيسي	١٩٩٧
إزرع دواءك بنفسك (الخضار كغذاء ودواء): د. عفيف غنيم	١٩٩٧

كانت وسيلته لدفن همومه واحزانه العميقة هي الإبداع ورسم أعظم اللوحات الفنية، فذاع صيته وانتشر في العالم ولمع نجمه... ولكن لا الشهرة ولا النجومية ولا الغربة المترعة بالعذوبة والجمال والطبيعة الساحرة وفرت لفيراغوث السعادة والتوازن والرضا.

فالتفكك الذي داهم اسرته، وعناد زوجته وانطوائها على نفسها، والاستئثار بولديها وتشبثها بآرائها ومن ثم وفاة ابنه الصغير الذي أحبَّهُ حَدَّ الجنون وامتلك شغاف قلبه، احاله إلى رجل مسن مدمر يسكنه الهم والحزن، يبحث عن ملجأ آخر يهرب إليه ويحمي روحه وعقله من الانهيار ويستعيد توازنه، ويعوض ولو جزءاً صغيراً عن الخسارات التي رافقت حياته.



وقف فيراغوث أخيراً كمحارب مهزوم خسر ابنه الحبيب وعائلته، وقرر هجر روسهالده حيث بيته وعائلته ومرسمه والرحيل إلى شموس الشرق بمساعدة أقرب صديق إلى روحه وكان سلاحه الوحيد هو أدوات الرسم (عدته) لمواجهة ماتبقى من سنوات عمره.



دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - دمشق ص . ب 32105
اشرفية صحنايـــا هـ : 6713079